ليس أول ولا أخير

أصوات العابرين المتداخلة تملأ الطريق، عربات الخضار والفاكهة على الجانبين، ينادي كلٌّ بائع على جمال بضاعته، رائحة السمك ومواد العطارة والنعناع تشغل كل ذَرَّة هواء في ذلك السوق، الذي لا ينضب من الرزق حتَّى منتصف الليل، ورغم الصخب الهائل، إلا أن صوت الشجار الذي بدأ لتوِّه أسمع كل رواد السوق وتجَّاره، فتجمعوا متفرجين غير متدخلين، مشاجرة معتادة بين حريم المنطقة، ستذهب إلى حالها بعد قليل، ثلاث نساء انكببن على واحدة تبدو أصغرهن سنًا وحجمًا، ومن نافذة بالطابق الأول طفل صغير، يبكي ويصرخ مناديًا على أمه، ثم يظهر من بعيد هذا الرجل المكفهر عظيم البطن، إذا رأينه هدَّأن الصوت تدريجيًّا، وأفسحن الطريق، حتّى وصل إلى تلك التي أهالوها ضربًا، تجهش بالبكاء وتنتحب، فكان أول ما فعله أن ضربها على وجهها صفعة رنّت لها الآذان، ثم جعل يجذبها من شعرها ودخلا إلى البيت، يخرج إلى المسامع صوت صراخها، والرجل يشتم ويسب ويلعن، والطفل يبكي، دقائق قليلة حتّى عمَّ السكون، وكأن موجة صمت خرجت من البيت وانتشرت في السوق بأكمله، إلا من صوت الطفل

يبكي وحده، كسرَ رجال المنطقة باب البيت، كانت السيدة قد فقدت وعيها أو حياتها من شدة الضرب، وإذا بالطفل يجلس متيقظًا وحده، والسكين بكفه، وقد طعن الرجل ست طعنات، فأماته بوجه مشدوه.

الفصل الأول

غروب فوق الأحمر

مصر - الغردقة

نصيحة.. عليك أن تعلم أنهم لن يعترفوا بك، لأنك مختلف عنهم، ولن يصدقوا ما يمكنك أن تصل إليه، فلا تحاول أن تشرح لأحد، دعهم.. دع الأيام تثبت لهم.. أنا عن نفسي يوميا آت إلى هُنا، حيث لا صوت سوى موسيقى الخرير على أيقاع ضربات قلبي المنتشي، من حولي الماء أزرق يراقص أشعة الضوء المنكسرة، تحت البحر، أرتدي بدلة الغطس، ونظَّارة تمنع تسلل الماء وتسمح بمتابعة ذلك العالم الأخَّاذ، رغم برودة الجو، إلا أنني لن أتنازل عن هذه العادة، غطَّاس بلا جدوى، لا أصطاد، لا أبحث إلا عن سلحفاة لطيفة تسبح فأراقبها، أو عن طحالب تتراقص محتفلة بموسيقى الخرير الدائمة، كل يوم هُم في احتفال، أو سلطعون يأكل من طحالب البحر التي لا تمانع، وكأنه بمطعم فاخر يأكل بالشوكة والسكين، أبتعد كثيرًا عن الشاطئ، أنسى ذلك العالم المليء بصخب السيارات والهواتف ونعيق البشر، مجرد تذكُّرهم يزعجني، فأحاول أن أنسى كل شيء، منبوذ فأهرب مع سرب الأسماك وأتظاهر أنني منهم، أمُرُّ بجوار

القناديل فألقي التحية، وبجوار الأسماك الخضراء والصفراء والقرمزية، الكبيرة والصغيرة، الهادئة في سبَّاحتها والمرتبكة، والشُعُب بمختلف ألوانها وأنواعها، أنام على السطح فتجعلني الشمس كالماس برّاقًا، أو أغطس وأسترخي، أغمض عيني، أصب تركيزي فقط مع تمايلي الهادئ المستمر، أشعر بسرب من الأسماك، يتحركون حولي، يقتربون مني، وكأنّي أستدعيهم، فيشكلون هالة حول رأسي، أعرف مكان كل سمكة فيهم وأنا مغمض العينين، وعندما أفتحها يهربون، كأنهم يداعبونني، وعندما تذهب الشمس أودعهم وأخرُج، ولو كُنت أرى في الظلام لبقيت، ولكنّي أعلم أن ذلك العالم المزعج بالخارج يكون أكثر هدوءًا في الليل، خرجتُ إلى الشاطئ فاستحممت، كان الحارس العجوز يقف على باب حمام الشاطئ يرمقني في تعجُّب، أسمع تساؤلاته في داخلي، «كيف يتحمّل ذلك الماءُ البارد!، هذا المجنون المُزعج يأتي كل يوم ويسبح لساعاتٍ دون أي فائدة».. ولما خرجت قال بلهجته الجنوبية اللطيفة «يا أستاذ محمود»، نظرتُ فإذا به يعطيني منشفة لأجفف ماء تساقط معظمه على البلاط الملطخ بالرمال، قال ناصحًا بأن المياه باردة، وأن عليَّ أن أعود في يوم دافئ، فشكرته على اهتمامه، وقال في نفسه «لن يفعل شيئًا».

أعيش في الغردقة، ولا أخرج منها، خرجت مرة منذ زمن طويل، وتعلمت أن من خرج من داره قلَّ مقداره، رحلت أمي في طفولتي، مرحلة متطورة من فيروس «سي» انقلبت إلى تليف كبدي وسرطان، لم أحزن عليها كثيرًا، لقد رحمها الله من افتراء والدي، ثم رحل والدي منذ عقد أو أكثر، رحمني الله منه، مات فجأة وبدون مقدمات، بلا سبب، أو بسبب لم أعرفه، ولم أهتم لمعرفته، وهكذا عشت سنوات وحدي، بلا عمل، أصرف مما ورثت وأصاحب الأسماك، لا أقصد بهذا الكلام أن أكسب التعاطف، في الحقيقة لم أحزن كثيرًا، حزنت قليلًا في البداية ولكن الآن.. لا شيء.

أخذت سيارة أجرة إلى البيت، بيت قديم من أربعة طوابق، يقبع أمام مقهى، ويحمل تلك اللافتة المتهالكة للرقم ١٠٩، أخذت الدرج طابقين، وضربت جرس الباب بجسد متهالك، وجاء صوت زوجتي من الداخل:

- مين؟

- هيكون مين يا ريما!

فتحَت بابتسامة وتعلقت بعنقي في رقّة، قبّلتها وسألتُ:

- عملتي أكل؟

- ثواني وبيكون جاهز يا عمري.

ميزة أن تتزوج سورية، هو أن تمتلك في بيتك واحدًا من أفضل المطابخ في العالم، وأنا أحب الثومية السوري بقدر حبي للبحر، أغرق فيها، وأقلِّبها في فمي متلذذًا مع كلِّ لقمة، حتّى لاحظت أن ريماس لا تأكل:

- مالِك، مبتاكليش ليه؟!

- يعني إيمتا رح تنزل تشتغل، ولا ناوي تظل هيك على طول؟

- أشتغل إيه؟ مدرِّس جغرافيا وتاريخ، أنا مش بتاع تدريس يا ريماس!!

- طيب هاد مو مصنع أبوك الله يرحمو موجود، ليش ما بترجع تشغلو من جديد، أو يا سيدي بيعو وهيك فينا نتصرف بالمصاري يلي رح تجي منو.

- المصنع مش بتاع بابا لوحده، في شركاء، والشركاء ليهم ورثة..

- يعني شو؟! رح تظل هيك عطال بطال، بس بتروح تغطس بالبحر، حتى المصاري يلي معنا رح تخلص يا محمود لازم تلاقي حل لهالوضع...

ريما إذا فتحت فمها، لن تغلقه بسهولة؛ لذلك عندما تتحدث أُفَعِّل خاصية العزل الصوتي، وبينما

هي تثرثر، دعوني أعرِّفكم عليها، ريماس الرازي، ولكنِّي أفضِّل اختصاره بـ (ريما)، لاجئة سورية، جميلة، ولكني لم أعد أثق بها، تعرفت عليها منذ عامين على أحد شواطئ الغردقة، جذبني قوامها ورقتها، ظننتها أجنبية في بداية الأمر، ولمّا تعرفت عليها، ولمّا عرفت أن لا أهل لها ولا صاحب، تزوجتها، هي جميلة، أحب أسنانها التي تُشبِهُ الأرنب، نظافتها في نفسِها، نفَسُها في الطبخ، ولكن أحيانًا أشعر بأشياء غريبة تجاهها، غريبة تجعلني أهجرها عند النوم، أشعر أنها تتخيلني شخصًا آخر، آه.. لا أعرف أين المشكلة، صراع غريب في داخلي، أسمع أصواتًا أحيانًا، أصواتًا لا يحق لي سماعها، أصوات وكأنني أسمع أفكار الناس، أو ربما هلاوس، تختفي وتظهر، مثل تردُّدات راديو غير مضبوطة، مدمجة بضوضاء صاخبة لأصوات متداخلة، أحيانًا ينقلب الأمر إلى تشويش وصفير، أحيانًا صداع شديد، وأحيانًا...

- محمود، إنت عم تسمعني؟

- سامعك ريماس، بس ممكن بعد الأكل نتكلم؟

- طيب تركنا من سيرة الشغل، ممكن تروح تشوف دكتور نَفسي وتحكي معو.

- نَفسي! هو أنا مجنون يا ريما؟!

- ماحدا قال مجنون.. يا محمود أنت طول اليوم بالبحر، ولما ترجع على البيت نظراتك بتكون غريبة، وأنت نايم بتحكي مع حالك، ولا كمان بتنام عين مغمضة وعين مفتحة، عم خاف منك بالليل، بحس أنو فيك شي مو طبيعي.

- بتكلم وأنا نايم وبفتح عيني بالليل خلاص بقيت مجنون؟!

- عم قلك ما حدا قال مجنون والله، طيب اسمع.. مو أنت قلتلي مرة أن عندك رفيق دكتور نفسي؟ روح وأحكي معو، قلو كلشي عم يصير، احكيلو يلي جواتك، طالما رفيقك مارح تخسر شي، أنا فايتة أتحمم وأنت فكر بكلامي.

وانسدت نفسي، تركت الشوكة وجعلت أفكر، هل أنا غريبٌ، خرج صوت الماء من الحمَّام فلفت انتباهي.. وذهبت خلف الباب لأسألها هذا السؤال الذي قفز إلى ذهني.. طرقت طرقتين فأجابت:

- شو يا عمري في شي؟

- ريما، أنتِ بتخونيني؟

هدأت المياه حتى سكنت تمامًا، وفتحت ريما الباب بضعة سنتيمترات، تظهر منها عيناها الواسعتان ويتدلى شعرها المُبتل.

- بربك محمود في واحد بالكون بيسأل مرتو هيك سؤال؟!

- ليه لأ؟

- يعني على فرض أني عم خونك، بتجي بتقولها هيك ببساطة! وأنا قال يعني رح قللك؟!

شعرت بتفاهة السؤال فأجبتها في ضيقٍ:

- جاوبي وخلاص يا ريما.

أغلقَت الباب ثم سمعتها من الداخل بعصبية:

- لأ يا سيدي.. أنا ما بخونك.

- طيب أنا هنام تصبحي على خير.

طبعًا لم ترد، في غرفة النوم جعلت أنظر إلى انعكاسي في المرآة، وجهي الشاحب حليق الذقن، شعري لم ينشف من البحر بعد، تتدلى خصلات منه على جبهتي، رفعته بكفي، جذبت جفني للأسفل بإبهامي واقتربت من المرآة، تأملت قليلًا عيني الحمراء، أخرجت من الهاتف اسم صديقي (دكتور أدهم) خرجت إلى الشرفة حيث يلتقط شبكة واتصلت:

- إزيك يا أدهم؟ معاك محمود صلاح أنت في الغردقة؟... طيب أول ما تيجي اتصل بي، محتاج أتكلم معاك شوية.

***

الإمارات العربية المتحدة - دبي

انبلج وميض ساطع من شاشة Laptop ظهرت منها علامة Windows استقرّت لبضع ثوانٍ حتَّى فُتحَ الجهاز على خلفية زرقاء لشاطئ رملي هادئ الموج أسفل سماء صافية، تكاد تسمع صوتَ البحر من شدَّة نقاء الصورة، وفوقَه تناثرت بضعُ أيقونات لصورٍ وبرامج وملفات، ثم اتَّجه سهم المؤشِّر الصغير تحديدًا فوق ذلك المتصفِّح المرسوم على أيقونته صورة بصلة بنفسجية لها قشور متعددة صفراء اللون، أسفلها كلمة tor.. نقر فوقه ففتح.

ذلك المتصفِّح الذي يمنح تقنية التخفي عبر العديد من طبقات الحماية التي تعسر الوصول إلى المصدر الأصلي للاتصال، تمامًا كما تقوم البصلة بإخفاء نواتها عبر العديد من القشور.

انفتحت نافذةٌ على موقع له خلفية رمادية تتدرج إلى أسفل ثقيلة نحو الأسود، وللموقع عنوان كبير بحروف إنجليزية لطيفة تُكتَب كلمة Dolphins، وعلى الحرف الثاني من الكلمة شعار لرسمة دولفين منحنيًا وكأنه يقفز من الماء عبر دائرة حرف o، وكان هناك صورة لكارت يشبه كروت أوراق اللعب، عنوانه كلمة Dolphins وأسفله مربع به رسمة

كارتونية لفتاة شقراء تجلس على شاطئ ترتدي بيكيني وتخفي بذراعها نهديها، صدريتها مخلوعة ويُمسِكُها دولفين بفمه في الماء، وهو قريبٌ من الصورة ومبتسم، وأسفله كلام يبدو غير واضح.

ثم سطعت في منتصف الشاشة نافذة صغيرة كُتِبَ عليها (تم تسجيل الدخول بنجاح).

وبعد أن انغلقت صدر صوت طنين خافت مع ظهور نافذة جديدة كُتِبَ فيها:

(لديك رسالة جديدة من الجنرال)

فنقر المؤشر فوقها نقرة لتُفتح نافذة فيديو للمرسِل (الجنرال)، رجل خمسيني، حليق الذقن، قميص أبيض فوقه صديري رمادي وربطة عنق أنيقة، ووجه ممتلئ قليلًا، اقترب من الكاميرا وهو يملي رسالته بأسلوب رزين:

«شريف غراب، محامٍ مصري كبير وعنده شركة محاماة عملاقة، الراجل ده كان ماسك ملفات فساد لرجال أعمال وناس كبار لوقت طويل جدًّا، بعلاقاته وأساليبه بيطلعهم من أي حاجة زي الشعرة من العجين، ولكن واضح إن في حاجة زعلته، خرج عن طوعهم، والمشكلة مش فيه، المشكلة في البيانات اللي معاه، كعادة أي حد بيطلع عن الخط المرسوم ليه بيكون الناس دي ماسكين عليه شوية

فضايح، جنس وفساد وغيره، سرَّبُوله شوية حاجات، والراجل كان زير نسوان بصراحة، ولكنه مفرقش معاه الفضايح، طاح أكتر، قالك عليَّا وعلى أعدائي، عرف يهرب من البلد، وبيهدد بفضح كل حاجة، وقال كتير، ولسه في أكتر، ومعاه كل الملفات اللي بتثبت اللي بيقوله، مش عارفين يقبضوا عليه، بس عرفنا مكانه، بعتِّلك كل بياناته، صعب طبعًا نقتله دلوقتي، عايزين بس الورق الأصل، وعايزينه يسكت شوية علشان كلامه زعَّل ناس كتير.. خلال يومين يكون الورق معاك يا يونس، ومش عايز حد يحس إن في أي حد هدده أو اتكلم معاه، يلّا take care».

يونس سليمان -مستقبل الرسالة- كان يُشبِه بطريقة عجيبة محمود صلاح، غطَّاس الغردقة، وكأنهما توأم، ولكن يونس هذا كان على العكس قصير الشعر، كثيف الذقن، عينه حادة، جادة، جسده متناسق، ووجهه أرفع قليلًا، وعلى ظهر كفِّه وشمٌ بالرقم ١٠٩، أشعل سيجارة وجعل يتصفح الملفات المرفقة.

الغرفة التي يعيش بها فندقية، واسعة جدًّا، تشغل أركانها التماثيلُ النحاسية والتحف مزيَّنة بالإضاءة الدافئة، أرفف خشبية مُحمَّلة بأواني الزهور، براويز

وكتب هنا وهناك، وفي الخلفية موسيقى عزف بيانو هادئ بسيط، وحائط كبير عبارة عن نافذة زجاجية واسعة تطل على أبراج دبي الباذخة، وفي المنتصف نافورة دولفين صغير يضخ الماء من فمه.

من الطرقة الواسعة خرجت (لي لي) «Lili» حسناء، بيضاء حافية القدمين، بقميص قصير وخطى ناعسة، أغلق يونس جهازه، ووضعت هي فنجان شاي أمامه، والآخر في يدها، جلست أمامه على المكتب، وقالت بأحمر شفاه فاقع لونه يملأ فمها الصغير:

- صباح الخير، إيه اللي مصحيك بدري؟

وأخذ رشفة من الشاي.

- مش قولنا منسألش.. حلو الشاي.

أخذت منه سيجارة، أشعلتها من سيجارته، أخذت رشفتين، ثم أردفت:

- ما تتجوزني.

- علشان شايك حلو؟

- علشان بتحبني.

- انتي بتقري أفكاري بقى!

قال، فأجابت وهي تتجه ناحية كرسي قريب:

- أنا برضو اللي بقرأ الأفكار!

- انتي متعرفيش عني حاجة يا لِي لي، إحنا عرفنا بعض من شهرين.

تركت ما بيدها، قامت واقتربت منه، كانت واقفة خلفه وهو يجلس أمامها، حضنته بذراعيها وأردفت:

- بس حبيتك، أنا راضية بأي حاجة يا يونس، حتى لو طلعت رئيس عصابة، حتى لو يونس مكانش اسمك الحقيقي، مش عايزة أعرف، إنت مش هتكون أسوأ من اللي شفتهم يا يونس، ومش عايزة غير إني أكون جنبك طول الوقت.

بكفه الموشوم ١٠٩ أمسك بمعصمها، قبَّل باطن كفِّها، ثم جعلها تجلس، وقال:

- أنا قُلت لك مش هقدر أحكيلك أي حاجة عن طبيعة شغلي، بس تعالي أحكيلك سر مفيش حد تاني هيكون عارفه غيرك.

***

مصر - الغردقة

- إيه يا سيدي خير؟

قال دكتور أدهم، وصوت الشاطئ الخافت يداعب الأذن من خلفه، إذا كانت مصر جنة على الأرض، فالغردقة هي الفردوس، عندما سألني عن مكان

مريح نلتقي فيه، لم أتردَّد في اختيار هذه الجزيرة، الجفتون، البحر هنا زجاجي ترى الأسماك بألوانها تُقبِل وتدبر فيه بين الفينة والأخرى، الرمال صفراء مليئة بالأشجار السوامق، تتمايل عندما يدغدغها النسيم بلطفٍ، وتضحك بصوتٍ حفيفٍ لطيفٍ، نجلس في كوخ واسع صُنِعَ من القش على جذوع الشجر، وأطراف القش المتدلية تظلِّني بظلِّها أنا وصديقي (دكتور أدهم)، والشاطئ ممتد أمامنا تحلِّق فوقه النوارس والعصافير، ارتجفت شفتاي قبل الحديث، وقُلت في تردُّد:

- أنا بحس بحاجات غريبة.

- حاجات زي إيه، احكيلي!

- لما بكون في مكان فيه ناس كتير بحس بصداع رهيب، مبحبش التجمعات، لما بكون بتكلم مع حد بحس ساعات إني سمعته وهو بيفكر، أوو... سمعت اللي هو عايز يقوله من قبل حتى ما ينطق بيه.

- بتقرأ الأفكار يعني؟!

- حاجة زي كده.

- طيب قولي أنا بفكر في إيه؟

نظرت باتجاه عينيه الضيقتين، حاولت التركيز

فيهما، ولكن لم أسمع سوى صوت الموج والطير، لم أقرأ شيئًا، قلت في ريبة:

- إممم.. مش بتيجي كده يا أدهم، أنا مش عارف بتيجي إزاي، بس هي حاجة أنا مش عارف أتحكم فيها، بس أنا فعلًا بسمعهم.

أخذ أدهم نفسًا عميقًا ثم زفره من فمه، أمالَ جسده نحو الأمام، أسند ساعديه على ركبتيه، عقد أصابع كفيه، ونظر إليَّ بتركيزٍ شديدٍ، وكأنه يرصد شيئًا في عينيَّ، وأردف:

- طيب ولما بتسمع أفكار الناس، إيه اللي بيخليك تتأكد إن دي أفكارهم، يعني ليه مثلًا مش مجرد توقع منك إنها أفكارهم أو حسن بصيرة أنك توقعت هما عايزين إيه أو بيفكروا في إيه؟

شعرت بضيق شديد، أدهم يتعامل مع المرضى النفسيين، وهو يراني منهم، ماذا فعلت في نفسي! وجودي هنا لا فائدة منه، قلت وفي صوتي نبرة الغضب والتوتر:

- أنا عارف يا أدهم، متبصليش على إني مريض نفسي، في حاجات كتير مستحيل تكون خيالات، فاكر لما كنت بكلمك تقولي سبحان الله كنت لسه بفكر فيك، كام مرة كنَّا أنا وإنت بنقول نفس الكلام في نفس الوقت، كام مرة بقول الحاجة وتقولي

خدتها من على لساني، عمرك أطول من عمري، كنت لسه هقولها.. بتحصلي كتير جدًّا، ومع ناس كتير.

- وليه متقولش إن كلها مجرد صدف وتوارد خواطر، ناس كتير بيحصل معاها كده، ده مش معناه إن كلهم بيقروا الأفكار وعندهم موهبة خارقة.

- وليه متقولش إن ناس كتير عندها الموهبة الخارقة دي بس بصورة بسيطة، وانا عندي أقوى شوية، تعرف إن زمان كان الحمام الزاجل بيعرف يرجع للمكان اللي اتربى فيه حتى لو على بُعد آلاف الأميال، وبمنتهى الدقة كمان، رغم إن عمره ما شاف الطريق ده قبل كده، في تجربة اتعملت على الحمام من فترة، طيَّروا حوالي ٨ آلاف حمامة مسافة أقل من نص ميل، عارف كام واحدة عرفت الطريق؟ ٥٠ واحدة بس، العلماء استنتجوا إن الموجات والشبكات اللي بقت حوالينا في كل حتة هي السبب في إن الحمام يفقد إحساسه بالطريق، لأنها بقت تشوش عليه، خلت الحمام الزاجل مجرد حمام بدون موهبة خارقة، دي تجربة مشهورة، وأنا متأكد إن التشويش ده كمان أثر على مواهب الإنسان، زمان الصدف دي كانت بتحصل أكتر، بس أنا دايمًا بعيد، أنا دايمًا في البحر تحت المَيَّه،

وعايش في مكان مفيهوش شبكة أصلًا، أنا متأكد إن أنا مختلف يا أدهم، تعرف إني لما أسأل حد مثلًا عن باسورد تليفونه وميجاوبش بلاقيني توقعته لوحدي، تفسر ده بإيه؟ ومواقف تانية، والموضوع مش بيحصل مرة واحدة، ده أكتر من مرة، وفي مواقف غريبة، وو... وفي حاجات تانية غريبة بتحصل معايا.

أسند ظهره للخلف من جديد، سأل بثقة وهدوء:

- حاجات زي إيه طيب احكيلي؟

- زي...

- صلاح أنا عايزك تحكيلي كل حاجة، علشان أقدر أفهمك وأساعدك، أنا صاحبك يا محمود، مش الدكتور بتاعك.

- أنا بنام بصعوبة يا أدهم، ساعات بكلم نفسي وأنا نايم، وو... ومراتي بتقولي إني بنام مفتح عين ومغمض عين.

- مراتك!! إنت متجوز يا صلاح؟!

***

الإمارات العربية - دبي

- سر إيه، هتقولي اسمك الحقيقي؟

- قلت لك اسمي يونس سليمان يا لي لي، ده اسمي الحقيقي أنا مش بكذب عليكي.

- مش مصدقاك بس ماشي، قولي إيه السر الخطير؟

أخذ رشفة طويلة من السيجارة، نظر للأعلى وأخرج الدخان كله دفعة واحدة نحو السقف، ثم نظر إليها وبدأ يسرد:

- طفولتي كان فيها مشاكل نفسية مش بحب أحكي عنها، أنا عملت جريمة بشعة وأنا عندي أقل من عشر سنين وكنت هروح الأحداث، لكن في حد أنقذني ورباني، دربني وعلمني وكبرني، عمري ما كان لي أخ، ولكن بقالي فترة طويلة بحس إن في حد بيحاول يتواصل معايا، حد شبهي، غطاس واسمه محمود صلاح، بيبعتلي رسايل، مش بتكون بشكل واضح ولكن بحس دايمًا إني شايفة قدامي في المراية، وإني سامع صوته، وبحس إنه عايز يقولي حاجه، تفتكري ده يكون إيه؟

سكتت قليلًا تفكر، ثم اقترحت:

- مش عارفة.. ممكن يكون فعلًا ليك أخ توأم وإنت مش عارف، بيقولوا ساعات الإخوات التوأم بيتواصلوا مع بعض، وبيحسوا ببعض، في أفلام وروايات كتير اتكلمت عن حاجة زي كده...

- غريبة صح؟

- جدًّا.. طيب ما تروح تدور عليه.

- معرفش مكانه، معرفش أي حاجة عنه، كل اللي أعرفه إنه غطاس، عايش في مصر، في الغردقة أو شرم الشيخ أو إسكندرية، مكان فيه بحر.

- ما تيجي ننزل مصر بكرة، أكيد هتلاقي حاجة.

- هدوَّر على كل اللي اسمهم محمود صلاح، وبعدين أنا مسافر النهارده بالليل واحتمال أغيب يومين.

- مسافر فين؟!

- مش قولنا منسألش.

قالت معه في نفس اللحظة بسخرية، ثم أردفت:

- طيب أنا مش معايا أي حاجة أقدر أتواصل معاك بيها، هستناك هنا، مش هنزل غير لما إنت تيجي.

- ولو مجيتش؟

- بعد الشر.

- مش هقدر أسيبك هنا وأنا مش موجود، انزلي اقعدي في بيتك وأنا هجيلك.

- طيب.

- انزلي دلوقتي.

في غرفته الخاصة ارتدى سترة سوداء متناسقة مع جسده الممشوق، صفف لحيته وشاربه بمشط صغير، ومسح بكفه على شعره القصير، فتح رقم سري لخزنة بها رزم كثيرة من الدولارات ومسدس أنيق، أخذ رزمتين وترك المسدس على حاله، وضعهم في حقيبة ظهر متوسطة، فيها laptop وبضع ملابس وأشياء أخرى، ثم فتح درجًا عريضًا مليئًا بالسكاكين، أشكالًا وأنواعًا وألوانًا، ذوي النصل العريض والرفيع، المنقوش والممسوح، المقابض الخشبية والمعدنية، وعلى اليمين كانت بضع أسطوانات حديدية في حجم عقلة الإصبع، لمّا فتح الدرج جعلت تتحرك اهتزازًا، وأسفلها مكان مخصص لزوج من قفازات رمادية اللون، نوع من القماش مقاوم للقطع والجروح، ارتداه ثم أخذ سكينًا صغيرًا، جعل يخدش ويرسم به على حائط خشبي، رسم قوسًا مائلًا قليلًا نحو الداخل، وفي الجزء العلوي من القوس ثلاثة خطوط صغيرة متوازية، ثم ألصق كل خط بما يليه من الأعلى بقوسٍ صغيرٍ، فأصبح القوس الكبير يمثل رأس دولفين، والخطوط المتوازية ترسم فمه، ثم أضاف حفرة للعين، وبجوار هذا الدولفين المرسوم مؤخرًا سرب كبير يشبهه مرسوم مسبقًا، أضاف موجة جديدة أسفل الدولفين

الأخير فأصبح شكله تمامًا مثل إخوته، نقش طويل عبارة عن دلافين فوق أمواج متتالية، ثم وضع السكين مكانه، ووضع القفازات فقط في الحقيبة، حملها على ظهره، ثم رحل وأبهم الضوء خلفه.

***

مصر - الغردقة

- متجوز من سنة، مقلتش لحد، معنديش حد أقوله، ولا هي ليها أهل، سورية هي، واسمها ريماس، جت مصر لوحدها، واتجوزنا.

جعل يفكر، لم يقل شيئًا، فأضفتُ:

- إنت دلوقتي مش عارف تلومني بحكم إن أنا صاحبك واتجوزت ومقلتلكش، ولا تتعامل عادي وتتقبل الموضوع على إنك الدكتور بتاعي والمفروض أكون مرتاح في الكلام معاك.. مش كده؟

بدا مرتبكًا، وأجاب:

- لأ خالص.

- أمَّال عايز تقول إيه؟

- عايز أقولك حد يبقى عايش في الغردقة ويسيب النعيم ده ويتجوز.

أشار بعيدًا، حيث بضع سائحات بالبيكيني يلعبن الكرة على الشاطئ، ضحكتُ ساخرًا، وعقَّب مبتسمًا:

- ألف مبروك يا صاحبي.

اقترب وعانقني، رددت له المباركة، شعرت بارتياح دام لثوانٍ، سألني:

- بتحبها على كده.

- كنت.. دلوقتي بحس بحاجة غريبة، بحس إنها بتخونِّي يا أدهم.

عقد حاجبيه، ثم أضاف سريعًا:

- إيه بس اللي يخليك تقول كده يا صلاح؟!

- بشوف في أفكارها حد غيري، لما بكون معاها بشوف ملامحه، تصرفاتها مريبة، تليفونها على طول صامت، أكيد مخبية حاجة.

- ما يمكن بتحبه صامت عادي، صلاح إنت طول عمرك شكاك.

- أنا طول عمري لمَّاح.

- لمَّاح، حلوة لمَّاح، يبقى لما تكون بتسأل حد على باسورد تليفونه زي ما بتقول وميردش وتلاقي نفسك عرفته، يبقى إنت أكيد شفته وهو بيكتبه

قبل كده، مش قريت أفكاره، صلاح في ذكريات كتير بتكون متسجلة في عقلنا الباطن وإحنا مش حاسين، بتقدر تجيبها لما تكون محتاجلها، في كم ذكريات ومعلومات كبير عندك إنت مش متخيل إنك تعرفه، اللا شعور هو اللي بيسجله وبتستدعيه وقت اللزوم، لما يكون عندك دافع إنك تستدعيه، عقلك الباطن ممكن يحققلك أي حاجة إنت عايزها لو عندك دافع تجاهها فعلًا، ممكن اللا شعور عندك يربط شوية حاجات مالهاش علاقة ببعض ويطلعلك استنتاج بعيد جدًّا عن الحقيقة، بس استنتاج إنت عايزه، ذكاؤك هو اللي بيربط الخيوط ببعض بطريقة منطقية، وانت فعلًا ذكي ولمّاح، بس بتلمح اللي إنت عايزه بس، وتطلع باستنتاجات تتوافق مع الشكوك اللي جواك، فكر تاني وتالت، وبص للصورة من بره أكتر، وهتلاقي إن إنت أكيد ظالمها.

- كلام جميل، إنت بتقول إن عقلي الباطن ممكن يحققلي أي حاجة أنا عايزها لو عندي دافع تجاهها فعلًا، يعني لو أنا فعلًا شكاك وعندي دافع إن أنا أقرا أفكار اللي حواليا، ليه عقلي ميحققليش الدافع ده.

- شفت، آديك أخدت من كلامي اللي يتوافق مع اللي إنت عايزه.. بص يا صلاح، أنا مسمعتش في

التاريخ عن أي حد بيقرأ أفكار، دي فكرة خيالية، ومش متسجل عندنا أي حالة في تاريخ الطب النفسي عن حد بيقرا الأفكار، في حاجة اسمها علم، واللي عندك ده حاجة من اتنين، يا فصام يا وسواس قهري، بطل تشك في اللي حواليك، مراتك أنا معرفهاش، بس عارف إنها بتحبك، لأنك شخصية تتحب، أنا هكتبلك على علاج بسيط، حاول تواظب عليه.

قال ما قاله ثم أخرج قلمًا وورقة صغيرة، كتب شيئًا، ثم أعطاني الورقة وأردف:

- بالمناسبة صحيح إنت معايا بكرة، أنا عازم شوية أصدقاء في يخت، يعني باربكيو وقعدة حلوة، هنتكلم مع بعض ونحكي ونفضفض، فيهم ناس من بره الغردقة وناس من هنا، وإنت جاي.

- أصدقاء ولا مرضى نفسيين يا أدهم وعاملُّهم تغيير جو.

- تغيير جو، حلو تغيير جو، أيًّا كان الموضوع، تعالى غيَّر جو معانا واتكلم، هتنبسط، وهتحب الجروب ناس لطيفة جدًّا.

- بس أنا مش فاضي.

- إنت كداب يا أبو صلاح، إنت عندك حاجة

تعملها أصلًا.. بطل الانطوائية اللي إنت فيها دي وتعالى، ده جزء من علاجك فعلًا، هستناك.

- هحاول.

- لأ هتيجي.. ويلا قوم علشان بدأت أسقع.

أثناء العودة فكرت قليلًا في كلامه، قد يكون محقًّا، قد أكون مبالغًا بعض الشيء، قررت أن آخذ خطوة إيجابية، اتجهت نحو الصيدلية واشتريت العلاج الذي كتبه، وبالقرب من الصيدلية دكان ورد صغير، تأملته قليلًا..

- لفّلي بوكيه حلو لو سمحت.

عليَّ أن أبدأ صفحة جديدة، دقائق وأعطاني البوكيه، مبهج جدًّا، ورائحة الورد تسر القلوب، ذهبت إلى البيت، وعلى السلم قابلت عم فتحي، جاري الذي كان اسمه على مسمَّى، فهو أكثر من يفتح بابه في العمارة ليقابل الطالعين والنازلين، فيلقي التحية كعادته.

- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إزيك يا أستاذ محمود؟ الله الله، إيه الورد الجميل ده، ربنا يخليكم لبعض يارب إنت ومدام ريماس، وتجيبولنا نونو صغير كده بإذن الله.

- الله يخليك يا عم فتحي.

- بس مدام ريماس مش موجودة، هي نزلت من شوية.

- نزلت راحت فين؟!

- معرفش والله مسألتهاش.

قال الرجل جملته الأخيرة بتوتُّر، وقد لاحظ وجهي المحتدم، أخرجت المفاتيح وفتحت باب الشقة بعصبية بالغة، سرجت الضوء، وبالفعل لم يكن أحدًا.

***

فتح يونس الضوء، فكشف عن طرقة واسعة لبيت أنيق، خلع حقيبة الظهر السوداء ووضعها في ركنٍ بعيدٍ، ثم جعل يتمشى في البيت وبكفه القفازات الرمادية، يسير ماسحًا بيده على الأسطح وهو يتأمل المكان، يقترب من مكتبة كبيرة مليئة بالتحف، يحمل كل تحفة بيده، يتأمَّلها ويقلِّبها ثم يتركها مرة أخرى، من بينهم صورة أنيقة لهذا المحامي (شريف غراب) الذي كلَّفه الجنرال بمهمة أخذ الأوراق الرسمية منه، جعل يتأمل صورته قليلًا ثم تركها مكانها، كان يمشي في البيت فيجد غرفة مغلقة، يطرق عليها طرقتين ثم يفتح الباب، تأكد أن لا يوجد أحدٌ بأي غرفة، رجع إلى المكتبة مرة أخرى، مسك صورة شريف غراب وتمتم «شكلك ناوي تتأخر».

عثر في أحد أركان الصالة الواسعة على عصا بيسبول سوداء مرسوم عليها بالأبيض، مسكها بيمينه وجعل يخبط بها على يساره وهو يمشي، يدخل غرفة النوم الواسعة، يقف فوق الفراش ويتظاهر أنَّه يلعب، يضرب كرة بيسبول وهمية، يضع كفه على جبهته وكأنه ينظر بعيدًا عليها، يومئ برأسه فخرًا ويقول «nice shot» ثم يترك المضرب على الأرض ويدخل المطبخ، يحضِّر كوب شاي ويمشي به، الكوب في يمينه، وسكين مطبخ متوسط الحجم في يساره، يغلق كل الأضواء مرة أخرى في طريقه حتى يدخل غرفة النوم، يترك الكوب على السرَّاحة، يطفئ الضوء، ثم يختبئ تحت السرير، ويغمض عينه.

تمر دقائق حتى يصل شريف غراب ومعه فتاة ليل، يسمعهم يونس من الداخل، يقبِّلها الرجل ويعانقها طوال الطريق نحو غرفة النوم، يضعها فوق الفراش ويستلقي بجوارها، ويونس تحت السرير ومعه السكين اللامع، صوت الرجل يغازلها ويقبِّلها في الظلام، ويخرج يونس السكين، ثم يغرزه بغتة في جانبها، فتصرخ متألمة بصرخات متكررة:

- آه.. آاااه...

ويقول الرجل:

- آه إيه.. إحنا لسه عملنا حاجة!

ولكنها تستمر في انتفاضها وصراخها المدوي، حتى تهدأ تمامًا، يسحب يونس السكين من جانبها، ويقول الآخر:

- في إيه مالِك!

ينير أباجورة صغيرة فيجد أصابعه ملطخة بالدماء، يردف وهو ينهض في فزع:

- إيه ده!

يبتعد نحو مفتاح الغرفة الرئيسي، يفتح الضوء، ومع تبدُّد الظلام تظهر هي مقتولة على الفراش، وتملأه دماؤها، وإلى جوار الفراش يقف يونس ويسأله وهو يحرِّك رأسه مستنكرًا:

- قتلتها ليه؟

لم يستوعب الآخر ما حدث، ظلَّ مشدوهًا ثابتًا في مكانه لحظات طويلة، رعب وصدمة على وجهه الذي انسحب منه الدماء، فصار أصفر كالرمال، ثم تحولت ملامحه إلى غضب شديد، بينما أدار يونس وجهه وتناول عصا البيسبول، وتناول الآخر كوب الشاي الفارغ ورماه به بقوة، وقال يونس بثقة دون أن ينظر له:

- تلعب بيسبول؟

ثم أدار جسده وهو يلوح بالعصا فأصاب الكوب في الهواء وتناثر الزجاج المحطم في كل مكان، وأردف:

- إنت كده بتثبت أثر الجريمة على نفسك، اهدأ كده شوية وتعالى نتكلم بالعقل.

- إنت مين وعايز إيه؟

- فين الخزنة اللي فيها الورق؟

- خزنة إيه؟!

- في الدولاب ده، أنا قلت هلاقيها ورا لوحة ولا في مكان سري، كام الباسورد؟

- .. إنت مجنون؟!

- اثنين خمسة ثمانيتين.. سهل أوي مش كده!

فتح يونس الخزنة، أخرج منها بضعة ملفات مليئة بالأوراق والوثائق، جعل يتصفحها قليلًا.. ثم سأله:

- ده كل الورق المهم؟

لم يجِب، وأردف يونس:

- في حكمة صينية بتقولك لا تضع البيض كله في سلة واحدة.

- إنت عايز إيه بالظبط؟!

- هقولك أهه..

أجاب يونس، ثم أخذ علبة السجائر الخاصة به، استأذنه:

- تسمح؟

لم يجِب، أخرج يونس سيجارة لنفسه وأشعلها، أردف وهي بفمه:

- طبعًا إنت مش محتاج مساعدتي علشان تخلص من الحلوة، إنت راجل قديم وليك علاقاتك، هتكلمهم يجوا ينضفوا المكان، ولكن مين عارف، ممكن اللي إنت هتكلمهم دول حد فيهم يبلغ عنك ولا يمسك عليك حاجة، ويمكن يطب عليكم البوليس وانتوا بتنضفوا، وطبعًا كاميرات كتير شافتك وإنت ماشي معاها، واللي ممكن يحصل إنت فاهمه كويس.

- والمطلوب؟

- مش عايزين شوشرة، اللي أنا عايزه أخدته خلاص، من بكرة تظهر للناس عادي جدًّا كأن مفيش حاجة حصلت، بس لو حبيت تتكلم في حاجة أتكلم في الطبخ، في الرياضة، في الأكل النباتي، حاجات من اللي مبتزعلش دي، مفهوم؟

أومأ الرجل برأسه، ثم تناول يونس عصا البيسبول واقترب منه، فابتعد الآخر في فزع وجسده ملتصق

بالحائط، ولكن يونس لم يمسسه، فقط قال له:

- أنا هاخد دي عجبتني.

وكان يقصد عصا البيسبول، ثم فتح باب الغرفة ورحل، ولكنه عاد مرة أخرى وقال:

- صحيح نسيت أقولك، متحاولش تبلغ الأمن عني، علشان محدش هيشوفني غيرك، فكر بس في المصيبة اللي إنت فيها دي.

أشار برأسه نحوها، ثم ذهب، وخرج الآخر خلفه متردِّدًا، تناول يونس حقيبته، وضع فيها عصا البيسبول والورق ثم علَّقها على ظهره، وراقبه الآخر حتى خرج من باب الشقة وأغلقه، أسرع نحو جهاز الإنتركم، وتحدث مع الأمن:

- في واحد بدقن وشعره قصير، لابس شنطة وبدلة سودة هينزل دلوقتي، اقبض عليه حالًا ومتخليهوش يتحرك، متخليش أي حد يطلع أو يدخل العمارة النهارده غير لما تعرف هو مين.

بينما يأخذ يونس الدرج صعودًا نحو الطابق الأخير، عندما كان يشعر بأن أحدًا يمر فيظل مختبئًا حتى يهدأ المكان، وصل إلى باب سطح المبنى، كان مغلقًا بقفل حديدي، أخرج يونس من حقيبته جهاز مستدير بحجم كف اليد به بضع أزرار، ضغط

على أحدهم فأضاء لمبة صغيرة حمراء وخرج جسم صغير يشبه نصل مفتاح، أدخله في القفل ثم ضغط زر آخر، ثوانٍ وتحولت اللمبة من الأحمر للأخضر، أدار الجهاز قليلًا فانفتح القفل، وكان إلى جانب هذا المبنى آخر يجاوره أقصر منه قليلًا، فأخرج يونس من حقيبته حبلًا به خطاف، ثبَّته جيدًا على السور ثم تسلقه هبوطًا نحو المبنى الآخر، في آخر الحبل كان به مقبض صغير، أدار يونس جزءًا منه فانفرد الخطاف وانفلت وسقط، لملمه ووضعه في الحقيبة، وخرج من المبنى المجاور بثقة وهدوء، وفي المبنى الآخر كان رجل الأمن يتحدث في الإنتركم:

- مفيش أي حد خرج من المبنى لحد دلوقتي.. أنا واخد بالي كويس يا افندم.. هو في عندك مشكلة طيب، تحب أطلعلك ولا أبعتلك حد.. تمام يا افندم متقلقش أنا واقف مكاني ومفيش أي حد هيدخل ولا يخرج إلا لما أعرف هو مين.

وأثناء ذلك كان يونس يمر من جوار المبنى مغادرًا.

الفصل الثاني

جزيرة الدولفين

كانت سفينة بضائع ضخمة تمر في عرض البحر، في جنح الليل، تقلِّب أنوارها مثل نجم مضطرب، ويستقبله على الطرف الآخر برج مراقبة قصير فوق هضبة في جزيرة بقلب البحر، وبالداخل رجل أسمر البشرة يحمل نظّارة مراقبة، فلمَّا رأى السفينة تقلِّب أنوارها جعل يجذب طرف حبل فيهتز جرس نحاسي ينشر طنينًا مدويًّا، ترمي السفينة أثقالًا في قلب البحر وتكمل طريقها، وتنطلق زوارق صيد صغيرة من الجزيرة موجهة أضواءها نحو ما تركته السفينة، بالقرب من سفح البرج يقف طفل صغير، يحمل في يده عصا خشبية ويبحث عن صخرة مناسبة يثبتها في الرمال ويطيح بها بعيدًا بضربة من العصا وكأنَّه يلعب بيسبول، وكان على وجه الصبي قناع غريب، لا يشبه أقنعة الأبطال الخارقين، ولا يشبه أقنعة الأطفال المعتادة، مجرد غطاء بلاستيكي صلب يغطي الوجه، به فتحات صغيرة للأنف والفم والأعين، مشدود خلف الرأس بحزام أسود، ومقفول بقفل صلب ثقيل، ويظهر على كف الصبي وشم برقم ١٠٩.

خرج المراقب من برج المراقبة وترك بابه مفتوحًا،

وجعل الصبي يتأمَّله قليلًا قبل أن يتحرك نحوه مترددًا، على باب البرج القصير رسمة دولفين وأسفلها الكلمة محفورة بحروف إنجليزية، وبالأعلى كانت نظّارة المراقبة وحدها، أخذها الصبي وجعل يراقب، لم تكن الجزيرة كبيرة كما تبدو من الأسفل، مبانٍ متناثرة في منتصف الجزيرة وسط الهضاب لا تتجاوز طابقًا واحدًا، متباينة في الأحجام والأشكال، لونها من السطح رملي يملأه القش والخوص، لا يختلف كثيرًا عن لون الجزيرة، حتّى إذا لمحها مراقب من بعيد يكاد لا يميز أي بناء فيها، كما يوجد حمّامان سباحة على شكل بِركة غير منتظمة، ومظلّات من الخوص متناثرة بالقرب من المباني، ومساحة واسعة من الرمال الصفراء يتخللها الأعشاب والنباتات الصحراوية في بقع متناثرة، وهضاب متباينة الأحجام والأطوال من الصخور الداكنة، أمَّا بعيدًا فليس هناك أي ملمح لبرٍّ قريبٍ وسط الظلام اللامتناهي، السفينة الكبيرة ابتعدت دون أي تواصل مع الزوارق، التي وصلت إلى شاطئ الجزيرة محمَّلة بعددٍ كبيرٍ من الصناديق، وكان الصبي يعرف أن هذه الصناديق تحمل ما قد تحتاجه الجزيرة من دعمٍ ومستلزمات خاصة، فرفع نظَّارته مرة أخرى وجعل يراقب البحر، وكان بالقرب من الجزيرة ذلك المنظر البديع، أسراب وفيرة من

الدلافين تتقافز وتتسابق تحت ضوء القمر وكأنَّهم في احتفال، وقد اتخذ سربهم طريقًا من الشمال إلى الجنوب حتَّى اختفى في الظلام، وعلى الجهة الأخرى مركب صيد كبيرة ضوؤها أصفر خافت، ترفع علمًا من قطعة قماش مثلثة حمراء يتوسطها غصن زيتون يحيط به إكليل ذهبي، وفجأة يسمع الصبي صوت يناديه، فيترك النظارة وينزل عدوًا، ولكن قبل أن يهرب يوقفه المراقب مهددًا:

- إيه اللي طلعك فوق، مش عارف إنه ممنوع؟

أومأ الصبي في جزع، فقال المراقب وهو يطمئنه:

- متعملش كده تاني، يلا روح على المطعم مع زمايلك علشان تتعشى، ونام بدري علشان بكرة الصبح محاضرة الجنرال.

ثم رحل مطمئنًا دون أن ينطق، واتجه مسرعًا نحو صالة المطعم الذي كان واسعًا وعلى طرازٍ فاخرٍ، والذي كان ممتلئًا بعشرات الأولاد الذين يرتدون نفس القناع الغريب.

***

الغردقة

بحثت عنها في كل مكان، لمّا تأكدت أنها ليست بالبيت لم أتمالك أعصابي، نسيتُ كلَّ شيءٍ قاله

أدهم، ألقيت الورد في صندوق القمامة، وجعلت أتردَّد ذهابًا وإيابًا في البيت، لم أرد أن أتصل، قررت أن أنتظر حتى تأتي من نفسها فأعرف مدة غيابها، وأسبابها، مرَّ أكثر من نصف ساعة، مستمعًا لدقات الثواني، تدور ببطءٍ شديدٍ، دخلتُ المطبخ، أخرجت السكين من مكانه، مسكته بقبضة صلبة، ثم أعدته مرة أخرى، حرَّكت رأسي مستنكرًا ما تخيلته، فتحت صنبور المياه وتركته مفتوحًا، صوت الخرير يُسكنني، ويخفف من التوتر، خرجت أجلس أمام الباب، أغمضت عيني وجعلت أنصت إلى صوت الماء، وبعد دقائق أخرى كان صوت مفاتيحها في الباب..

- كنتي فين كل ده؟!

بدا على وجهها القلق.. ولكنَّها حاولت أن تخفيه، قالت بثقة:

- كنت بالسوق عم جيب شوية أغراض.

كانت تحمل بعض الحقائب بالفعل، تأملتها، ثم أردفت:

- أنا مستنيكي بقالي ساعة.

- السوق كتير عجقة والأغراض يلي بدي ياها كتيرة مشان هيك تأخرت، بعدين ليش ما رديت عليَّ

لما اتصلت أول مرة، حتى إني رجعت اتصلت مرة تانية كان تليفونك مغلق.. ليش تارك المي هيك مفتوحة؟!

ثم تركتني ودخلَت سريعًا إلى المطبخ.. أخرجتُ الهاتف فوجدت أنها اتصلت بالفعل، وكان صامتًا، ولكنِّي لم أطمئن، ثم هدأ صوت الماء، وجاء صوتها تقول:

- والله حرام.. تارك كل هالمي تروح هيك ع الفاضي!

مرّت ثوانٍ هادئة حتَّى خرجت مرة أخرى وهي تحمل باقة الورد، قالت:

- لمين هاد الورد؟!

لم أجب، نظرت في ضيقٍ إلى الأسفل، أسندت رأسي إلى كفي أحاول أن أهدأ، فاقتربت هي، ثم عانقتني برفق.

***

كانت لي لي أيضًا تعانق يونس، وقالت:

- لسه اللي اسمه محمود ده بيحاول يتواصل معاك؟

- أنا شايفه دلوقتي، قاعد في حضن مراته، زي ما إحنا قاعدين كده بالظبط.

اعتدلت في جلستها، نظرت له في عينيه وقالت:

- وإيه اللي يخليه يوريلك حاجة زي كده!

- أعتقد إنه مش بيكون قصده، يمكن في نوع غريب من التواصل بيني وبينه، بيبعت الأفكار دي بدون قصد، زي ما أنا بستقبلها بدون قصد، في حالات كتير شبيهة لكده، لكن كل التسجيلات الرسمية عن المواقف دي بدأت تختفي الفترة الأخيرة، إلا حالات نادرة طبعًا، من فترة طويلة نشرت مجلة أخبار روسية أن رواد الفضاء لما بيكونوا في مدارهم حوالين الأرض بيسهل عليهم التفاهم بدون كلام، كأنهم بيحسوا ببعض، كمان من المواقف المعروفة أن اثنين من الطيارين الأمريكان كانوا بيعملوا تجارب على مستويات عالية في الجو، وواحد منهم سمع زميله بيقوله عن دخان خارج من طيارته، ولما بص لقى إن فعلًا كان في تسريب.

كانت تنصت في شغف، تبتسم وتراقبه في حُبٍّ، فسألها:

- مالِك مبسوطة كده؟

- أصلك أول مرة تحكي معايا كتير.. كمان الموضوع شاغلني من فترة، إنت فعلًا بتفهمني

وتحس باللي عايزة أقوله من قبل ما أتكلم، رغم إن عمري ما فهمت دماغك، تعرف.. قريت قبل كده قصة عن ممرضة خطفت طفل، وفي لحظة قامت الأم تصرخ وتنادي على ابنها، ولما راحوا يجيبوه اكتشفوا إن الممرضة خطفته، ونفس المقال كان بيتكلم عن الراجل اللي أسس جامعة موسكو، بيحكي إنه حلم في مرة أن أبوه بيغرق، وإنه بيطلب منه يدفنه في مكان مناسب، ولما بعت ناس يبحثوا عنه اكتشفوا إن أبوه في اللحظة دي فعلًا مات غريق، وهو كان بعيد عنه ومكانش يعرف عنه حاجة من فترة طويلة، كان مقال لأنيس منصور اسمه إذا ضربت الطفل بكت أمه.

- انتي بتقري مقالات كمان!

بدهشة قال يونس، فرفعت رأسها تنظر للأعلى بفخر، وبأناملها سحبت خصلات شعرها كنوع من التباهي، ثم أردف يونس:

- الراجل الروسي اللي بتقولي عنه ده اسمه ميخائيل لومونوسوف، واحد من أكبر العلماء والمثقفين الروس، لدرجة أقرب إنها تخليه إنسان مش طبيعي، يا كان عبقري محصلش، يا كان بيقرا أفكار اللي حواليه وعنده كم هائل من المعلومات، صعب تلاقي مادة علمية الراجل ده مطورهاش، في

الكيميا والفيزيا وعلوم اللغة والبلاغة والرياضيات والعلوم الاجتماعية وحتى في كتابة الشعر، وكان له اكتشافات واختراعات تانيه كتير، وهو مش حالة فريدة من نوعة، في زيه أديسون مثلًا، اللي كان كتير بيتهموه بسرقة أفكارهم، ومنهم تسلا نفسه، وفي أمثلة كتير جدًّا، الناس اللي بتقدر تسخَّر وتتحكم في قدراتها ممكن توصل إنها تسيطر على العالم.

رمقته في دهشة، ثم أخرج سيجارة، أخذ منها واحدة وأخذت من بعده، وأكمل حديثه:

- زي هتلر، برغم قصره وجسمه الصغير إلا إنه لما كان يبص لحد في عينه ميقدرش يقاومه، كان عنده قدره رهيبة إنه يبث أفكاره ويدخلها في رأس اللي بيكلمه، ونابليون كمان، قبل حتى ما نفوذه يكبر لما كان لسه جنرال صغير، بعتوه في حملة لأيطاليا مع جنرالات أقدم وأكبر منه، كان فيهم واحد اسمه أوغيرو، معروف عنه إنه مغرور ومتفاخر ببطولاته وشجاعته، وكان لسانه طويل وله نفوذ ومبيهموش حد، وكان رايح مع زمايله مقر القيادة ناويين يعملوا حفلة على نابليون، ولكن أول ما دخل نابليون عليهم وقفوا كأنهم تماثيل، عطاهم الأوامر وشرح لهم مواقفه وهم انتباه محدش فيهم بينطق،

وبعدين صرفهم، ومفاقوش من صدمتهم غير بعد ما خرجوا من عنده، رغم إن حجم نابليون كان صغير، ولكن الجنرال أوغيرو قال أن البونابارت الصغير ده رعبه فعلًا، ومحدش فيهم كان فاهم سر الرهبة اللي سيطرت عليهم من أول نظرة، وده موقف صغير من مواقف كتير لنابليون، ولكن الناس اللي عندهم قدرات زي دي بدأوا يختفوا بالتدريج من بعد الحرب العالمية الثانية، ومفيش سبب واضح لده.

- إنت عرفت القصص دي كلها منين، ولا برضو هتقولي مسألش؟

- عادي.. درستها وأنا صغير.

ثم تناهى إلى الأسماع رنين هاتف يونس، إشعار كُتِبَ فيه «لديك رسالة من الجنرال» فانتفض واستأذنها دقائق، طلب منها أن تعد طعامًا، ثم دخل إلى الغرفة وأغلقها.

***

الغردقة

تسربت ساعات اليوم، ومال ميزان النهار، وراحت الشمس تتوخى سبيلها إلى المغيب، وكان اليخت يتمايل بثقة أمام الشمس الغاربة، وكأنه سفينة السندباد في عصر حديث، فوق الأحمر، أحد أجمل

البحار على الأرض، على رأس اليخت كانت نار على فحم تشوي بعض من اللحم، ملأت رائحته سماء اليخت، فناؤه رحب يسع الحضور التسع، ضحكات وهمهمات هنا وهناك، كلهم أصدقاء -أو حالات- عند دكتور أدهم، منهم مَن كوَّن صداقات سريعًا، ومنهم من انطوى وظلَّ صامتًا، مثلي أنا وهذه الحسناء التي تنام على السرير المتأرجح بأفخاذ تلمع مثل الغروب، ونظارة شمس ترفع بها شعرها، اسمها سارة، وهي خطيبة بشير دكتور المخ والأعصاب، الرجل الذي يلعب استميشن مع دكتور أدهم الآن، ومعهم رجل آخر وفتاة على نفس الطاولة، ويبقى من الحضور اثنان، هذه السيدة الخمسينية التي تولَّت أمر الشواء، ويساعدها شاب وسيم يبدو في منتصف العشرينيات، الأجواء هنا لطيفة، صوت النسيم وفرقعات الشواء والبحر، قال بشير:

- على فكرة أنا مش مركِّز علشان جعان، هو فاضل أد إيه على الأكل، ريحة الشواء هتجنني؟

- محدش هياكل غير لما أيمن يجي.

أجاب دكتور أدهم، وسألت الفتاة التي تلعب معهم:

- هيجي ازاي في نص البحر؟

- حضرة الظابط أيمن شحاتة مبيغلبش، هيجي.

ثم تساءلت هي بشغف:

- هو ظابط كمان!

- أنا هنزل المياه شوية قبل ما الشمس تغيب، يكون صاحبك اللي مبيغلبش ده وصل.

وكنت أنا من تحدث أخيرًا، أردت أن أهرب من هذا الزحام، وافق أدهم بشرط ألا أبتعد، فتناولت نظارة الغطس، وقفزت إلى البحر كعائد إلى وطنه، المياه دافئة، مستقرة هادئة، شفافة جدًّا، وضعت النظارة على عيني، وفي فمي أنبوب التنفس الصغير المعقوف، وولَّيت ظهري للعالم، جعلت أتمايل مع الموج، كان الضوء خافتًا، ولكن الأحياء المائية كانت جلية، أسماك أحجام، هنا وهناك، وبعض يأكل من طحالب علقت بقاع اليخت، تبدو مثل ظِلٍّ رمادي، جعلت أتابعها قليلًا، وكانت الشمس قد هوت كالجمرة خلف الأفق البعيد، وأمست السماء تستنفد قطراتها الأخيرة من النور في خمرة موردة، حينئذ ظهرت سارة، وجدتها تقفز من الأعلى، فتخترق جدار الماء لتنغمس ببطءٍ فيه، كحبة لوز ملساء، شعرها يتمايل خلفها بتمهل وثقة، وجسدها يلمع كاللؤلؤ المتناثر، كانت تضحك لي وهي تكتم أنفاسها تحت الماء.

- ممكن أجرب النظارة؟

سمعتها ولم أسمعها، شعرتُ بروحها تهمس في أذني، دون أن تحرك فمها، طلبَت ولبَّيت، خلعت النظارة ومددت ذراعي فتناولَتها بحماسٍ، ساعدتها على ارتدائها، حابسًا أنفاسي تحت الماء، كنت أعدل شعرها وألمس وجهها وفي قلبي رهبة غريبة، ثم أخذَت تشير إلى السمك الذي يأكل أسفل اليخت، بوجه يملأه الفرحة مثل طفل صغير، جعلت أتأملها حتى آخر ذرة أكسجين اختزنتها، ثم خرجتُ من الماء لأسحب المزيد، فخرجَت خلفي، ثم خلعَت النظارة ورمقتني برمش مبتل وعين لامعة:

- شُفت السمك تحت.. تُحفة.

- أنا عايش تحت أصلًا، كل يوم بروح شاطئ الفيروز، واخدها عوم لغاية الجزيرة اللي قصاده وأفضل مقضيها غطس.

- أنا سارة؟

قالت مبتسمة، وأخرجت كفَّها من تحت الماء للمصافحة، نظرت إليها فلم أستطع منع بصري من الالتفات إلى قدميها اللتين تسبحان بانسيابية، جذَّابة رغم النور الخافت، قُلت:

- محمود، محمود صلاح.

ثم جعلت أفكر إن كان هذا المدعو بشير خطيبها

حقًّا، كيف يتركها وحدها معي في الماء، بالأخص وهي بهذا الحُسن، وسألتُ فضولًا:

- هو دكتور بشير اللي فوق ده خطيبك، صح؟

فكان ردُّ فعلها غريبًا، حيث ألاحت بيدها وعقَّبت:

- سيبَك منه!

شعرت بإحراج وعدم ارتياح من إجابتها، حاولت أن أقول شيئًا، ولكنَّ عقلي لم يسعفني، وقبل حتى أن يسعفني وجدتها تصرخ فجأة، حينها فزعت بشدَّة واضطرب جسدي كله.

- يخربيتك في إيه!!

قُلت بدهشة، وأجابت:

- النظارة فلتت من إيدي.

غطست سريعًا، كانت على بُعْدِ مترين تقريبًا، تهبط ببطء نحو القاع، رؤيتها صعبة، ولمحتها بآخر قطرات من النور، التقطها وخرجتُ.

- أنا افتكرت قِرش عضك.

فضحكَت، وفي هذه اللحظة ظهرَ خطيبُها بغتةً من أعلى اليخت يسأل:

- إيه الصويت ده؟!

وتنبأت بورطة موشكة، فجعلت أبعد عنها رويدًا،

وأجبتُ بخجلٍ:

- أصل ال... نظارة وقعت منها تحت و... خلاص أنا جبتها.

- طيب يلا اطلعي علشان الدنيا ليِّلت.

قال خطيبها، وكان لون السماء أزرقَ قاتمًا، والشمس قد غابت تمامًا، ثم اختفى بشير مرَّةً أخرى، لم أشعر بارتياحٍ، وكنت أتوقع رد فعلٍ أشد، فقلت:

- شكله طيب أوي.

ولكني وجدتها تقول:

- مبحبهوش.

فصدمني ردُّها، ولم أعلم ما يمكن قوله في لحظة مثل تلك، بدت في شدة الضيق، بيدُ أنني لم أجد منه ما يثير غضبها لهذه الدرجة، قد أهملها بعض الشيء، وربما هذا هو أكثر ما يثير حنقهم، ولكن حاولت أن أهدِّئها، كنّا خلف ظهر اليخت، وكان هناك سلَّم معدني يتدلى إلى الماء، فعمدت ذراعي إليه لأن قدمي بدأت تؤلمني من كثرة العوم، وكانت قد فعلت ذلك من قبلي، وقلت بعد أن تناولت أنفاسي:

- اهدي طيب، مفيش حاجة حصلت تستاهل كل ده.

وكانت الجملة بمثابة الفتيل لقنبلة تحتجز الكثير من الكلام، ثم انفجرت أمامي، في البداية أسندت ظهرها إلى السلم، كفُّها الأيمن فوق كتفها ممسكة بإحدى الدرجات، والأيسر تحت الماء تمسك بأخرى، ثم مدت قدميها طافية على سطح البحر، وكنت على يسارها أمسك دعامة السلم، باسطًا ذراعي بعض الشيء محتفظًا ببعض المساحة الشخصية، قالت:

- أنا حياتي متلخبطة، عمري ما عرفت أمشِّيها زي ما أنا عايزة، زهقت من كتر التحكمات، اتخطبت مرتين قبله، الاتنين كانوا أوسخ من بعض، طول عمري كنت ببص للبنات اللي هيموتوا على الجواز وشايفاهم كائنات ساذجة، ماما هي اللي قعدت تقنعني وتقولي اقبليه، دكتور مخ وأعصاب وأهله ناس واصلة، بشير ده بقى مش شايفني قُدَّامه، وفي الآخر يقولي انتي عندك مشاكل نفسية ويجيبني لدكتور أدهم، وهو أصلًا اللي محتاج يتعالج.

الحقيقة أنني شعرت فعلًا أنها غريبة الأطوار، مَن يحكي كل هذا لرجل غريب يقابله لأول مرّة! ولكنِّي تعاطفت معها، رغم أنَّها لم تقل ذلك بعصبية، ولا بحزن، كانت هادئة، تنظر للسماء القاتمة، وكأنَّها تحدِّثها، وكأنَّها اعتادت على ذلك، وقد بدأت

النجوم تظهر في السماء رويدًا، وكانت أنوار اليخت تتلألأ على سطح الماء في بقعة قريبة، وسمعنا همهماتهم وضحكاتهم من أعلى في لحظة هدوء، وقلت كاسرًا حاجز الصمت:

- كلنا محتاجين علاج نفسي.

لم تجب، وتجلَّى الهدوء مرة أخرى، حتَّى تناهى إلى الأسماع صوت محرك يتصاعد ويقترب بسرعة كبيرة، والتفتنا فكان رجلًا ثلاثينيًّا ممشوق القوام على مركبة صغيرة من نوع (جيت سكي)، وقف إلى جوارنا تمامًا، وكان دكتور أدهم من أعلى اليخت يلوح إليه ويناديه:

- أيمن، اطلع من هنا.

وابتعدنا أنا وسارة حتَّى يتسنى له ربط المركبة بحبلٍ كان معه في سلَّم اليخت، وكانت ملامح هذا الرجل مألوفة جدًّا، رغم فتور الضوء إلا أنني كنت متأكدًا أنني رأيته قبل ذلك، ولكن لا أذكر متى وأين، ثم أخذ الدرج صعودًا وناداني دكتور أدهم كي نطلع:

- صلاح، سارة، يلا الأكل جاهز.

في ساحة اليخت كانوا في جلستهم يشكّلون دائرة، كل يجلس على الأرض بطريقته الخاصة، وعلى

رأس الدائرة كحلية الخاتم كانت نار في صندوق من الصفيح، اشتد البرد قليلًا فجلستُ بالقرب من النار، بالمنتصف عدد لا بأس به من أطباق اللحم والخبز والخضروات، وكانت الأصناف كلّها شهية، كل شيء متقن، وشعرت بنشوة وسعادة لا تنتابني كثيرًا وسط جمعٍ مِنْ أناسٍ لا أعرف معظمهم، جلست أتأمل الجميع، وإن كانت الأفكار لا تُسمَع، فالأعيُن ناطقة، جعلت أراقب الوجوه، منهم من كان صامتًا، ومنهم من انتظر أي لحظة ليلقي كلمة أو نكتة ويفتعل حوارًا، وبعد أن انتهينا من الطعام والشراب جعل أدهم ينادي أكثر من مرة حتى انتبهنا جميعًا:

- إحنا جايين هنا نتكلم ونفضفض لبعض، ده نوع من العلاج النفسي اسمه العلاج الجماعي، أنا مش بجرب فيكم، دي طريقة مُعترَف بيها من أساتذة الطب النفسي في مصر وكل دول العالم، وأثبتت فعاليتها أكتر من الطريقة التقليدية مع بعض الاضطرابات النفسية، زي الوسواس القهري، والاكتئاب، والإدمان، وغيرهم.. عمومًا عايز بس أقولكم كام نقطة سريعة كده قبل ما نبدأ، إحنا هنا مش في مجال إننا نلوم حد أو نوجه أي نقد أو اتهامات لبعض، مطلوب بس إننا نتكلم بصراحة، ندعم ونسمع بعض، كلنا تقريبًا عقليات وأعمار متقاربة، وكل واحد فينا عنده مشكلة، وكل واحد

هيجي عليه دوره علشان يحكي لنا تجربته، ودي مش هتكون الجلسة الوحيدة، يعني مكملين مع بعض شوية، بس أعتقد إن وقت التعارف عدى خلاص وبقينا تقريبًا عارفين بعض، لكن يفضل كل واحد يتكلم يعرَّف نفسه الأول وبعدين يبدأ يحكي، علشان كده رأيي إن أول واحد المفروض يتكلم هو آخر واحد جه، وبالمرة يعرِّف نفسه وباقي المجموعة تطمنله وتتعرف عليه، حضرة الظابط أيمن شحاتة.. عندك مشكلة تتكلم أول واحد؟

عندما لم يذكر اسمي تنفست الصعداء، أعتقد أنني لم أكن الوحيد الذي فعلَ ذلك، وجعلت أفكر في اللحظة التي تُسلَّط أعينهم عليَّ، ويُطلَب مني الحديث، ماذا قد أقول؟! مجموعة من المرضى لن يصدقوني، هل أخبرهم أنني أقرأ الأفكار ولكنها قدرة لا أتحكم بها، وأنني أشك أن زوجتي تخونني، ولكن ليس هناك أي دليل عليها سوى في خيالي، يا لَهُ من جنون واضح، كيف أهرب من هذا الحديث؟.. كان الهواء رطبًا قارسًا، وغدت عظامي ترتعد من البرد والتوتر، وفكِّي يدق في عقلي كالطبول، رغم أني عادةً لا أشعر بالبرد بسهولة، فقررت أن أبدد من عقلي تلك الأفكار حتى أهدأ قليلًا، أن لا أفكر في دوري وماذا قد أقول، وجعلت أتأمل الحضور مرة أخرى، مَن هُم متشوقون للحديث، ومن هم

مرعوبون منه، ترى ما هي قصصهم، مَن منهم كان مدمنًا، ومن منهم مات له شخص عزيز، من منهن تعرَّضن للتحرش، ومن منهم تعرض لضغط مادي أو خيانة زوجية، مَن هجرَ أهله ومَن هجروه، أي قصص جمعتنا هنا سويًّا، منذ صغري وأنا أمتلك رغبة عارمة لمعرفة ما يدور في الأذهان، كل فردٍ يكتم سرًّا عظيمًا، كل يحمل بداخله ماردًا شريرًا، وملاكًا طيبًا، لم يعرض الضابط أيمن عن الحديث، ولكنَّه طلب شربة ماء أولًا، كان يجلس أمامي وجعلت أحملق فيه، مفتول العضلات أبيض البشرة حليق الذقن، يحمل طبنجة في جانبه، أكاد أجزم أنه تعمَّد إظهارها ليعرب عن نوع من القوة والسيطرة، كما أكاد أجزم أنني رأيته قبل اليوم، ولكن أبدًا لم أتذكر، بعد أن انتهى من شرب الماء اعتدل في جلسته وتفحص الوجوه المترقبة، أخذ نفسًا طويلًا ثم بدأ يتكلم:

- أنا اسمي أيمن شحاته، من الغردقة، ولكن شغال ظابط جمارك، الحمد لله عمري ما أخدت رشوة، ودايمًا بيكون لي نظرة في الناس ومين المفروض أشك فيه وأفتشه ومين لأ، علشان كده أنا كنت واحد من أشطر ظباط الجمارك رغم صغر سني، ولكن مؤخرًا مبقتش متظبط نفسيًّا ومبقتش عارف أركز في شغلي ولا حتى عارف أنام...

قبل أن يقول جملته الأخيرة أخذ نفسًا عميقًا، وبعد أن قالها شرد ذهنه وتدنَّت رأسُه، صمت قليلًا، أكاد أشم الذكريات تفوح من ينبوع أفكاره، ثم أردف:

- في ناس بتكون غلطانة بس مش مدركة، لكن أنا عارف المشكلة اللي عندي ومش عارف أغيَّرها، كل ما أقرر ما أرجعلهاش تاني بلاقي نفسي ضعفت عند أول فرصة ممكنة.. أنا عندي ٣١ سنة، مش متزوج، لكن كنت مرتبط باتنين في نفس الوقت، الاتنين كنت بحبهم والاتنين مش قادر أبعِدْ عنهم، وزَيّ ما كنت مخبي عليهم إني عارفهم على بعض، واحدة منهم كانت مخبية عليَّا إنها متزوجة أصلًا، ولما عرفت طبعًا عملت معاها مشكلة كبيرة، ومبقناش نتكلم تاني وافتكرت كده مشاكلي اتحلت، وخطبت الثانية وخلاص، لكن هي مسابتنيش، الغريبة إني رجعت أكلمها بعد فترة قصيرة، علشان الممنوع مرغوب، رجعت أكلمها أكتر من الأول، وبقت بتحلوّ في عيني أكتر من خطيبتي..

ووجدت نفسي أنهض فجأة، أمسكت هذا الرجل من رقبته، وأوقعته على الأرض ووقعت فوقه، ناولتُه بضع لكماتٍ بقبضة تكاد تنفجر عروقها من شدة الغضب، وجعلت أسأله:

- اسمها إيه، اسمها إيه انطق؟

جاء أدهم سريعًا ورجلان آخران، حاوَلا إبعادي من فوقه، وكان هو يقاوم، وكان أقوى منِّي، ولكني بسرعة سحبت الطبنجة من حزامه فتغيرت الموازين، وقفت ووجهتها نحو كلِّ مَن كان يمنعني فابتعدوا، وانطلقت صرخات من أفواه النساء، عمَّت فوضى واضطراب على سطح اليخت ونهض كلٌّ منهم على قدميه وتجمعوا في أبعد نقطة عنِّي، وجَّهت المسدس نحوه بيدٍ مرتجفة وطلبت أن يخرج هاتفه، فأعطاه لي سريعًا وهو يحاول تهدئتي ببضع كلمات لم أسمعها، كنت أنظر إلى ملامحه، ربما كان هو الوجه الذي رأيته في أفكار زوجتي، وها هو يعترف أمامي، إن الغردقة غرفة وصالة، سألته عن نمط فتح الهاتف فلم يجِب، ولكنِّي أدخلته وكان صحيحًا، فتحت دليل الهاتف لأبحث عن رقمها، ووجَّهتُ المسدس مرة أخرى نحوهم فابتعدوا أكثر، وجوه مرضى ينطق الفزع في ملامحها، يعضون أصابعهم وترتعد أطرافهم وتتسع أعينهم، يتقدمهم أدهم ويفرد ذراعيه وكأنه يحميهم، ويحاول تهدئتي بكلمات ساذجة، جعلت أقترب من مؤخرة اليخت، ألقيت الطبنجة والهاتف حتى لا يتبعني أحد، ثم أخذت الجيت سكي الذي جاء به وانطلقت بسرعة جنونية نحو الشاطئ.

***

الإسكندرية

رجل أربعيني ينام على سرير بغرفة في طابق عالٍ بأحد فنادق الإسكندرية الفاخرة، النافذة الزجاجية تطل على شوارعها التي لا تنطفئ أنوارها ولا تهدأ، زحام السيارات والعمارات المتناثرة، حدائق وأشجار المنتزه، والبحر الممتد إلى أقاصي الأبصار، وإذا فجأة يظهر يونس معلَّقًا بحبل من خارج النافذة، يخبط خبطتين على الزجاج، فإذا بالرجل النائم ينهض من مكانه مذهولًا، يفتح يونس النافذة وهو يحمل بيمينه مسدسًا كاتمًا للصوت، وبيساره باقة ورد صغيرة حمراء.

- ممكن أدخل؟

يسأل ولا ينتظر الرد، يدخل ويخلع الحبل من حزامه، ينظر الرجل إلى الوشم ١٠٩ على ظهر كفه، وكان هناك وشم مثله على كف ذلك الرجل، يحمل الرقم ٦٧ ثم ابتسم الرجل وقد بدأ يتفهم، وقال بنبرة هادئة:

- كنت عارف إنها مسألة وقت وهيعرفوا مكاني، جاي تقتلني ولا هُما عايزني حي؟

وقد ظهرت ملامح الأسف على وجه يونس لتجيبه دون كلام.

***

(قبل يومين)

فتح يونس شاشته على رسالة الجنرال العاجلة لم يكن الفيديو مسجّلًا هذه المرة، ولكن اتصالًا مباشرًا، يسأل الجنرال فيه:

- لو دراعك فيه مرض خطير، عجزت إنك تعالجه، ولو سبته هيشكِّل خطر على جسمك كله وممكن يموتك، هتعمل إيه؟

- هقطعه.

هكذا أجاب يونس بدون تردُّد، وأضاف الجنرال:

- رائد عنان، واحد مننا، كان دفعتي، وصديقي شخصيًا، واحد من أكفأ المتدربين في المنظمة، تخيَّل كان رقم ٦٧ وأنا ٦٦ وكان مرشحًا أن يكون هو الجنرال، ولكن الاختيار وقع عليَّ، متفهمش كانت غيرة ولا غباء منه، لما طلع من الجزيرة قرر يبحث في ماضيه، رفض مهمات اتقدمتله وحاول يفضح سِرّ شيفرة الدولفين، من كام سنة طلَّع تصريحات كتير يتكلم فيها عننا لكن محدش صدَّقَه طبعًا، حاولنا نجيبه ولكنه اختفى، قريب بس عرفنا هو فين.. وانت عارف نهاية اللي بيتكلم.. (ثم قال بنبرة حزينة) إنت زي ابني يا يونس، لأنك واحد

من أشطر المتدربين عندنا، ومخبِّيش عليك رائد عنان كان زي أخويا، إنت عارف قد إيه صعب عليا إني بنفسي أطلع أوردر بتصفيته بس.. إحنا أقسمنا بالولاء للمكان ده، واللي يخون (ثم أردف وقد بدأت نبرته تتغير إلى لهجة جادة، صارمة وغاضبة) يتطبق عليه القانون، ولو كان ابني شخصيًّا..

***

رصد الرائد عنان في ملامح يونس نية القتل، وسأله بسخرية:

- وإيه اللي إنت شايله ده؟!

كان ينظر إلى الورد الذي حمله، وأجاب يونس بهدوءٍ قبل أن يضع الورد على طرف السرير:

- الورد!! ده علشانك.. كان نفسي أقولك تتمنى إيه قبل ما تموت لكن للأسف مفيش وقت، عندي ميعاد كمان دقيقتين.

- اسمع يا بني، إنت مضحوك عليك، فيه حاجات كتير إنت مش عارفها عننا.. اسمع مني أرجوك!

- أنا محدش يعرف يضحك عليَّا.

أجاب يونس وهو يوجِّه المسدس نحوه.

***

(قبل يومين)

- قولي يا يونس، هو إيه حكاية الولد المصري بتاع الغردقة اللي حكيت عنه للبنت اللي إنت ماشي معاها دي!

- إنتوا بتتجسسوا عليَّا!

- دي إجراءات أمنية ضرورية، الأولوية فيها الحفاظ عليك وعلى سلامتك، قولي بقى، إيه حكاية الولد ده.

- معرفش عنه كتير، غطَّاس واسمه محمود صلاح، لكن في نوع من التخاطر بيحصل بيني وبينه...

- اسمع يا يونس، متفكرش في الموضوع ده تاني، ومتخليش أي حاجة تشتتك وتأثر على تركيزك، إحنا شغلنا صعب، إحنا جنود الأرض وعندنا عقيدة، وخسارتك هتكون خسارة كبيرة لينا كلنا.

- خسارتي.. مش للدرجة دي، دي مجرد أفكار عابرة.

- زي ما قُلت لك، شيل الموضوع ده من دماغك، ومتسمحش لعنان إنه يتكلم معاك كتير ويلعب بأفكارك، هو مش سهل، أنا هبعتلك موقعه وبياناته حالًا.

***

- أرجوك، اسمحلي بدقيقة واحدة أكلمك فيها، وبعدين اعمل فيّا اللي إنت عايزه.

كان الرائد عنان يبدو عليه القلق الشديد، وقد كان مسدس يونس موجَّهًا نحوه بثبات ودقة، لما طلب دقيقة للحديث لم يجِبه يونس، ولكنه نظر إلى ساعته بهدوءٍ، ثم جلس على مقعدٍ قريب ووضع ساقًا على ساق، أسند يمينه على ركبته وبها المسدس متدليًا، وشرع يستمع وكأن الدقيقة قد بدأت بالفعل، وكأن الدقيقة قد بدأت بالفعل، فأردف الرجل:

- قالولنا إن إحنا جنود الله على الأرض، وإننا جايين علشان نحفظ السلام، ولكن الحقيقة إننا جنود الشيطان، غسلوا مخنا لسنين علشان بس نؤمن بعقيدتهم ونكون مستعدين نضحي علشانها، ورونا الجانب الأسود بس من كل أعدائهم، هما جايين يدمروا العالم مش يصلحوه، كل واحد فينا مزروع ليه شريحة علشان يعرفوا مكانّا وبنسمع إيه وبنقول إيه كويس، علشان يتأكدوا إننا مش هندوَّر على الحقيقة، وأول ما يحسوا بخطر منك بيبدأوا يهددوك بطُرُق مباشرة وغير مباشرة، ولو قرَّبت منها مش هيترددوا للحظة إنهم يقتلوك، مهما

كنت مهم عندهم، أنا كنت من المحظوظين اللي قدروا يفهموا الحقيقة ويهربوا، تقريبًا أنا الوحيد، وعندي معلومات خطيرة جدًّا عن موضوع شيفرة الدولفين، حاولت أتكلم كتير بس فشلت، نفوذهم أقوى مما تخيلت، سيبك من إنهم صح ولا غلط، مسألتش نفسك إحنا ليه مبنقراش أفكار بعض جوه المنظمة، مبتجيلكش حتى أفكار غريبة كل فترة، إنت مش هتصدق بيعملوا فينا إيه عشان يضمنوا ولاءنا، أننا نكون مجرد روبوتات عندهم، وأيه هي شيفرة الدولفين، حتى مش عارف أفهمك من كتر ما الموضوع معقد، إحنا معمولنا غسيل مخ، الحكاية أكبر مما تتخيل، إحنا...

وعند تلك الكلمة كانت قد انطلقت من مسدس يونس طلقة أخرسته، وأردف:

- شششش.. الدقيقة خلصت.

ثم مدَّ يده وأخذ من باقة الورد وردةً، ثم خرج من حيث أتى.

***

(قبل يومين)

أغلق يونس اللاب توب بعد أن أنهى المكالمة، وجعل يلتقط مجموعة أوراق، كانت رأسه تزعجه

بلحظات متقطعة من حياة محمود صلاح، وهو يهددهم بالطبنجة على اليخت، وهو يأخذ الـ «جيت سكي» متجهًا نحو الشاطئ ينوي شرًا بزوجته التي ظنَّ أنها تخوُنه مع ذلك الضابط الذي ظهر فجأة، تناول يونس أنفاسه واستعاد تركيزَه، ثم خرج من غرفته، كانت «لي لي» نائمة وبجوارها طفاية مليئة بأعقاب السجائر، أيقظها بلمسة بسيطة على كتفها، وقال:

- إيه رأيك ننزل إسكندرية؟

***

رنين هادئ لملامسات الشوك والسكاكين بالأطباق، نغمات بيانو خافت، سكون وهمسات هنا وهناك، إضاءة رومانسية بسيطة، و «لي لي» تجلس وحيدة على طاولة لفردين بمطعم الفندق، ترتدي قبعة قرمزية واسعة الأطراف، مطعَّمة بزخارف وحلي كثيف، تتدلى أطرافها أمام عينيها فتظللها وهي تطل من نافذة واسعة على طريق لا ينضب أبدًا من السيارات العابرة، أكثرهم من تاكسي الإسكندرية المميز باللون الأصفر اللافت، ولولا الزجاج المُحكَم لاقتحمت زماميرهم دعة المكان وبدَّلته جلبة وصخب، على الناحية الأخرى من الطريق كان سور قصر المنتزه، بنّي بأعمدة

بيضاء وقمَّة مدرعة كالقلاع الحربية، من خلفه تطل الأشجار السوامق والنخيل، وكان البحر يلوِّح في الأُفق البعيد، يحرِّك أمواجه كالجرو إذا حرَّكَ ذيلَه فرحًا بالنسيم، وبينما شردَ ذِهنُها في كل ذلك، ظهرت من خلف رقبتها وردةٌ حمراء، تحملها يدُ يونس المميزة بالوشم.

- اتأخرت عليكي؟

قال، وأجابت بلطفٍ:

- دقيقة واحدة بس.

ثم قامت وعانقته، ثم تناولت الوردة وجعلت تستنشق أريجها، أثناء ذلك كان يونس ينظر من النافذة نحو الطريق، حيث جاءت سيارة إسعاف لتقف أمام الفندق، ويخرج منها طاقم الإسعاف بسرير المسعف عدوًا إلى داخل الفندق، فابتسم يونس ثم جلس أمامها:

- تاكلي؟

- طلبت بس لسه مجاش.

- طلبتي إيه؟

كادت تجيب، ولكنه أردف:

- ستيك مشوي مع فرينش فرايز، اختيار موفق.

اتسعت عيناها في دهشة، فُغِر فاها وانطلقت منه شهقة قصيرة:

- إنت إزاي بتعمل كده؟!

- قريت أفكارك.

ظلت مشدوهة فترة قصيرة، إلى أن أردف يونس مُعلِّقًا على الموسيقى الهادئة الصادرة من سمَّاعاتِ المطعم:

- شوبان Nocturnes أجمل وأشهر معزوفاته.

- أنا مليش في المزيكا خالص، بس عجباني، هاديه وكلاسيكية.

كانت الوردة تدور بين أصابعها يمينًا ويسارًا، ولم تتركها إلا بَعْدَ أن كتب يونس شيئًا على منديل صغير، أعطاه لها فبدَت ملامح وجهها بين دهشة وخجل وسعادة بالغة، حتى إذا جاء الطعام، طلبَ ما طلبته وجعلا يأكلان، هذا حين خرج طاقم الإسعاف من الفندق، وعلى الفراش يرقد الرائد عنان، وقد بدا جسده ساكنًا تمامًا، مغطى بملاءة بيضاء وبقعة دماء فوق قلبه. لمحته لي لي ولكنها لم تعقب، وأثناء ذلك، وفي طاولة قريبة منهم كان رجل عظيم البنية يجلس وحيدًا، يراقبهما، ويتابع ذلك المشهد بالأسفل، حتى ذهبت الإسعاف وانتهيا من الطعام

ورحلا، فقام الرجل وتوقف أمام طاولتهما الفارغة، ومن بين بقايا الطعام، تناول المنديل الذي أعطاه يونس لها، فلم يكن مكتوبًا عليه إلا كلمة «بحبك» فتعجب لذلك كثيرًا، ثم أخذ المنديل ورحل، وكان على ذراع الرجل وشم بالحروف Orca وعلى كفِّه وشم بالرقم ١١٧.

***

الغردقة

أخذت من الشاطئ سيارة أجرة حتّى باب البيت، كل ذلك مضى في لمح البصر، لم يهدأ عقلي أبدًا، كانت ثورة تقوم بداخلي، كادت أظافري تقطع باطن كفي من شدة قبضتي عليها، قدمي لم تهدأ طوال الطريق من اهتزاز لا إرادي، أنفاسي تتلاحق كعدَّاء حطَّم للتو رقمًا قياسيًّا، وأسناني منطبقة على بعضها كتمساحٍ يعض على فريسته، لم أكن طبيعيًّا أبدًا، أشعر بحالة نفسية غريبة، جعلت أتذكرها في أحضانه حتى وصلت إلى باب البيت، ضربت الباب حتَّى كاد ينكسر، ولمّا فتحَت رأيت كفِّى تظفر بشعرها فتجذبه بقوة، أغلقت الباب وسألتها بغضب:

- مين أيمن شحاتة؟

كانت تصرخ، تدَّعي أنها لا تعرفه وتنكر، ولكنها

كاذبة، وأنا لست بأحمق، دفعتها بغضبٍ فسقطت، وسالت دماء فوق جبهتها من مصدرٍ لا أعلمه، ولكنِّي لم أبالِ، كنت غاضب بشدة، يا الله!! حتّى تلك اللحظة لا أذكرها جيدًا، من شدة انفعالي كان كل شيء يبدو وكأنَّه حلمٌ مبهمٌ، تحضرني تفاصيله بذكريات مختلة، بصورة باهتة مشوشة ومكهربة، كنت أطبق على رقبتها، وكلما حاولَتْ المقاومة استحكمت قبضتي، جسدي راسخ فوقها، ولم أهدأ إلا لمَّا سكنَت تمامًا، لأكتشف أنني أمام جثة هامدة.. كل شيء حدث سريعًا، وكان وجهها أزرقَ شاحبًا، وكنت في أشد اضطرابي، ناديتُها كثيرًا، خبطت على وجهها وحرَّكته، هززت جسدها.

- ريما.. ريماا...

وكانت عينها ثابتة تحملق في الفراغ، حاولت أن أصغي إلى دقات قلبها، وكان صمتًا بالغًا، وكأنني فقدت السمع، وجهي شاحب مثل وجهها تمامًا، ضربت الحائط مرارًا بلا وعيٍ ولا شعورٍ، ثم تناولتُ أنفاسي وناديتُهَا مرةً أخيرةً بهدوء، ولكنها لم تجِب، فجلست على مقعدٍ بعيدٍ، لا أنظر لها.. صببتُ زجاجة ماء على رأسي المحتدم حتَّى تنهدت من برودتها، وجعلت أحدِّق في هذا الموقف الذي لم أتخيل يومًا أنني قد أتورط فيه، ثم وجدت نفسي

لا إراديًّا أضحك!! لم أذرف دمعة، بل ضحكت، مثل ممثلٍ لا يتقن دوره، لحظة ثم هدأت تمامًا وملأ وجهي التوتر، اتسعت عيناي وسكنَ جسدي. وجعلت أفكر ماذا الآن؟

نهضت بصعوبة على قدمي التي خلت منها الدماء، فتحت السمَّاعات على أعلى درجة صوت، معلنًا تلك الموسيقى الشهيرة المهدِّئة للأعصاب (بيتهوفن - معزوفة ضوء القمر - moonlight sonata) ثم على ترنيمات البيانو مررت بالطرقة، عابرًا فوق القتيلة الراكدة، متجهًا للمطبخ لأتناول بعض الكعك، وأعددت لنفسي فنجانًا من القهوة.. تمنيت لوهلة أن يحتل النوم أجفاني، فأستيقظ وكل شيء على ما يرام.. ولكنّي بعد حينٍ تأقلمت مع الكابوس، وقررت أن أكمله لآخره.

لن أسلِّم نفسي، هي الخائنة، لا أشعر بالذنب، لستُ أوَّلَ مَن قتل، ولن أكون الأخير، لا أحدَ يعرف أنها موجودة هنا، حتَّى أدهم لم يرَها من قبل، ولكن هذا يترتب عليه سؤالٌ جديدٌ، كيف سأتخلَّصُ منها؟ هذا يحتاج إلى تفكيرٍ وهدوءِ أعصابٍ.

زارني ألمٌ في بطني بعد القهوة.. فأخذتُ جسد ريما في طريقي إلى الحمَّام، اجتذبتها من قدمها، فتمدَّدَ شعرها خلفها، وتركت مكانَهُ بقعة داكنة من

الدماء، كانت أنغام المعزوفة تتسارع في تصاعد مستمر، ثم فجأة سمعت خبطًا مدويًّا على الباب، هرب الدم من عروقي، وخرجت من الحمَّام مشدوهًا، ولشدة حماقتي أجبت:

- مين؟

وكان أدهم.. الغبي! لماذا أتى الآن؟! وكيف تذكَّر بيتي الذي لم يجِئه من سنوات طويلة، ليتني ما أجبت، كان من الممكن أن أتصنّعَ أن لا أحد بالبيت، وأن أظلَّ ساكنًا حتَّى يذهب، ولكنَّ الأضواء ساطعة، والموسيقى عالية، وكان سيدرك أنني هنا على أي حالٍ، ولن يهدأ، وسوف ينبِّه الجيران، خاصةً عم فتحي المتطفل.. من خلف الباب قُلتُ برجفة:

- ع... عايز إيه؟

- افتح نتكلم شوية.

- مش عايز أتكلم مع حد.

- افتح يا صلاح لو سمحت، أنا مش ماشي من هنا غير لما تفتح ونتكلم.

ترددتُ، اقتربت من الباب ثم ابتعدت مهرولًا، لأغلق باب الحمَّام بإحكام، وتناولت سكينًا من المطبخ، أخفيته خلف ظهري بيدٍ مرتجفة، وأوقفت العزف المتسارع، ثم فتحت الباب بهدوء، تركته

يدخل، وأغلقته خلفه.

***

كان الجنرال في حالة غضبٍ وهياجٍ شديدٍ، في مكتب واسع وأمامه شاشة يظهر من خلالها ذلك الرجل مفتول العضلات الذي كان يمسك بالمنديل في المطعم، والذي يحمل وشمه كلمة Orca ورقم ١١٧، أصلع حليق الشعر والذقن، طويل بجسد ثقيل وصلب، وملامح غليظة، تحمل بين ثناياها علامات الغضب وخيبة الأمل، ويقول له الجنرال:

- إيه؟ معرفتش في أنهي مستشفى؟!

- أنا عرفت من الفندق المستشفى اللي طلبوها لكن الإسعاف مراحتش هناك يا جنرال.

- يعني إيه، الإسعاف بتاعة المستشفى راحت بيه مستشفى تانية؟!

- يمكن.

- يمكن!

قال الجنرال بغضبٍ بالغٍ، وذلك المدعو أوركا لا يبدي أيَّ رد فعلٍ سوى الخزي على وجهه، وأردف الجنرال:

- وانت مَرُحتش ورا الإسعاف ليه يا أوركا؟

- أنا كنت براقب يونس، كان بيكتب ورقة للبنت، وكنت عايز أعرف كاتبلها إيه، أفكارها كانت مشوَّشة ومقدرتش أعرف بتفكر في إيه.

- بيكتبلها ورقة!! ورقة إيه؟؟

سأل الجنرال، وقد بدا مكترثًا جدًّا بأمر تلك الورقة.. وأخرج أوركا من جيبه منديلًا وقرَّبه للكاميرا فظهر جليًا في شاشة الجنرال الكبيرة، مكتوب فيه (بحبك) مع رسمة قلب صغير، عقد الجنرال حاجبيه قائلًا:

- عينك متغفلش عن يونس الفترة دي.

وابتسم أوركا ابتسامة انتصار، اقتربت كفه الضخمة من الشاشة فانطفأت، وظهرت خلفية موقع الدولفين، وضغط الجنرال على الرقم ١٠٩ فتجلَّت صورة ثابتة ليونس، وبدأ اتصال لم يأخذ وقتًا طويلًا حتى انفتحت شاشة يظهر من خلالها يونس، واقف وهو يمسح رأسه بمنشفة وأخرى على وسطه، فقال الجنرال:

- نعيمًا.

- أوامرك؟

- عايزين نتأكد إنه مات.

قال الجنرال، فارتبك الثاني وجلس أمام الشاشة،

ثم أردف:

- ده من إمتى! وبعدين ما بكرة ينتشر الخبر في الصحف.

وجعل الجنرال يحك ذقنه بضيق، ثم أضاف:

- صحف إيه يا يونس، ده فندق، وهيحافظ على سمعته، وبعدين الراجل ده لا نعرفله بيت ولا أهل، والورق بيتضرب بسهولة، محتاجين فيديو وهو بيتدفن في الصحراء.

- أوامرك يا جنرال.

قالها يونس وهو يومئ في اطمئنان ثم أغلق الشاشة، فاتكأ الجنرال على مقعده مطمئنًا، بينما كان يونس في ارتباك شديد، يأخذ غرفته ذهابًا وإيابًا وقد بدا شارد الذهن متدبرًا، أخرج هاتفًا صغيرًا قديم الطراز، وكتب رسالة نَصُّها:

- عايزين فيديو وهو بيتدفن في الصحراء.

واستقبلت الرسالة النصية على الطرف الآخر يد أنثى بأظافر طويلة وطلاء قرمزي مثير.

***

الغردقة

- بص يا صلاح، أنا مش عايز أتكلم كتير في اللي

حصل النهارده، بس لازم تعرف إن العلاج الجماعي ده كان حلم بالنسبة لي، قليلين اللي بيروحوا لأطباء نفسيين في مصر، وكان صعب جدًّا إني أجمع عدد من الحالات متوافقة مع بعض ومؤهَّلة لكده، بس إنت كنت الغلطة اللي أنا عملتها، أنا مش جاي أعاتبك، لأن الغلط عندي، كان المفروض أتعامل معاك أكتر، أنا اعتمدت على معرفتي السابقة بيك وجلسة واحدة قعدتها معاك، بس إحنا مبنتكلمش كتير من أيام الجامعة، إنت آداب تاريخ وأنا علم نفس، مع الوقت مبقيناش نتكلم وكل واحد له مشاغله، بس متنساش إنك صاحبي من زمان، أنا برضو عايز أساعدك، إنت قبل أي حاجة صاحبي، لازم تعرف إنك مريض بالفصام، ومحتاج...

- أنا مش محتاج حاجة يا أدهم، خلاص إنت ساعدت كفاية، وأقدر أقولك إن مشكلتي اللي جيتلك علشانها انتهت، أنا مش واحد من المرضى بتوعك، ويا ريت تمشي لأن وجودك هنا ممكن ينهي كل اللي بينا.

لم أقل ذلك بعصبية، قلته بهدوءٍ شديدٍ، وثباتٍ أشد، والسكِّين من خلفي يرتج كالماء يغلي على صفيح ساخن، ولكن أدهم هو من تملَّكَه الغضب، فارتفع صوته وهو يقول:

- عارف المرضى اللي بتقول عليهم دول، إنت كنت أكبر مشكلة فيهم، إنت عملت أذى نفسي خطير لكل اللي كانوا موجودين.

فأجبته على نفس نبرته:

- حاولت كتير أمتص أي أذى بيحصلي وما أكونش رد فعل أسود لحياة سودة، لحد ما السواد سيطر عليَّا، طول حياتي كاتم جوايا، متسامح مبعملش أي رد فعل عن أي حاجة بتحصلي، بس عارف؟ اليوم اللي أخدت فيه رد فعل، حسيت إني أول مرة أضحك من قلبي، الناس بطبيعتها مؤذية يا أدهم، وأنا ماليش مكان وسط المرضى النفسيين بتوعك، أنا معنديش مشاكل نفسية، أنا بس شايف الحقيقة اللي هُمَّا مش فاهمينها.

حاول أدهم أن يتمالك أعصابه مرة أخرى، وأردف:

- إنت شايف جزء من الحقيقة يا صلاح، بس الصورة الكاملة مختلفة، الناس مش وحشة زي ما إنت شايف يا أخي، حتى لو كنت بتقرا أفكارهم.

- لأ غلط، الناس سودة وبتاعة مصلحتها، عايز تعرف الناس بتفكر في إيه.. (وعددت على أصابعي ثلاث): جنس، وفلوس، وسُلطة، هي دي دماغهم.

- لأ.. في ناس محتاجة أمان، في ناس محتاجة حب وصحاب، كلنا فينا الخير والشر، وكتير من الشر اللي بنشوفه بيكون انعكاس على تصرفاتنا وسوء فهمنا، عيد حساباتك يا صلاح، وصالح مراتك وقرب لها أكتر.

ثم سكت قليلًا، ولكنِّي لم أعقِّب، كنت قد لمحت بقعة الدماء التي تركتها ريماس خلف ظهري، فجعلت أبلع ريقي وأخفي ارتباكي، لا زال السكين خلف ظهري يُحدِث زلزالًا، بينما أدهم يتلفت حوله كأن يبحث عن شيء، ثم يسألني بفضول:

- هي فين مراتك؟

ارتج قلبي واضطربت أنفاسي، تزعزعت ثقتي، وطلَّ الارتباك من نوافذ ملامحي، نظرت إلى الحمَّام وكأنني أتأكد أنه مغلقٌ، وأنها لن تخرج، وانفردت ذراعي قليلًا، فظهر مقبض السكين الخشبي من بين أصابعي، ولكنَّه لم يلاحظ، كان يصوب عينه في عيني، وأردف:

- إنت ضربتها يا صلاح؟

لم أنبس ببنت شفة، ثُقبت رأسي وسقطت منه الكلمات، وجعلت أتعرف على واقعٍ تجسَّد أمامي فجأة، أقف أمام صديقي وفي يدي سكينٌ، زوجتي مقتولة داخل هذا الحمَّام الموصد على مرمى

البصر، وهو يسألني عنها، وأنا من قتَلَها، وهذه البقعة خير دليل، فعطلت عن الكلام، ولكنه لم يعطل عن السؤال:

- هي هنا؟

لم أخرج من انشداهي، ضاقت نفسه، ضربَ على كتفي، وقال صارخًا:

- رُد عليَّا!

ولم أفعل، فقط رمقته بغضبٍ، وأحكمت قبضتي على السكين اللعين، وأضاف:

- ممكن أكلمها؟

- مش هتقدر تسمعك دلوقتي..

قلتها وأنا أقترب منه، وأنا أحدِّق في عينيه، وأكملت الجملة في عقلي «لأني قتلتها» ولكنّي ترددت قبل أن أخرجها، وإن قلتها فلم يكن ليتلوها إلا السكين غارق في رقبته، ولكن جسدي أبى أن ينفذ، وظل متصلب الأطراف.

- هي فين؟

سألني.. وأظهرت السكين أكثر، وأجبت:

- في الحمَّام.

وأشرت برأسي، كانت عيني صوب الحمام جامدةً،

وتقدَّم فأعطاني ظهره، اقترب من الحمام أكثر وسألني دون أن ينظر:

- هي كانت بتعيط؟

جعل يقترب من الباب أكثر، تبعته ورفعت السكين وقلبي يكاد ينفجر، وقال موجهًا كلامه للقتيلة:

- مدام، أرجوكي لو سمعاني دلوقتي ياريت تستحملي محمود الفترة دي وتخليه يتابع معايا، محمود طيب، هو بس عنده مشكلة نفسية إن شاء الله هتتحل لو تابع ومشي على العلاج اللي هكتبهوله..

ثم نظر إليَّ، وكنت قبلها بأقل من ثانيةٍ أخفيت السكين خلف ظهري مترددًا، أخرج ورقة من جيبه وسألني:

- ممكن قلم؟

نظرت إلى الجزامة وأشرت برأسي، وكان فوقها قلمٌ وكرَّاسٌ، فاتجه نحوه، كتب مجموعة من الأدوية، ثم أردف:

- يا ريت تاخد علاجك يا صلاح.

ثم خرجَ وأوصد الباب خلفه.

***

- عايزين فيديو وهو بيتدفن في الصحراء.

استقبلت الرسالة على الطرف الآخر يدُ أنثى بأظافر طويلة وطلاء قرمزي مثير.

(قبل ذلك ببضعة أيام)

كانت صورة الرائد عنان تتجلى على شاشة يونس، وهذا بعد لحظات من مكالمة الجنرال التي أوكل إليه فيها مهمة قتله، كان يونس ثابتًا مكانه في هدوء لا يتحرك، ولكن في رأسه ضجيج كأنه محركاتٌ تدور، يقلِّب أفكارَه ويدرسها جيدًا، ثم قام واتجه إلى درجه العريض المليء بالسكاكين، أخذ سكينًا ليرسم به على اللوح الخشبي رسمة الدولفين علامةً على مهمة جديدة سيبدأها، وكان إلى جوار اللوح عصا البيسبول السوداء، تأملها يونس قليلًا، ثم تردَّد أن يكمل رسمته بعد أن خدش اللوح مسافة عقلة أو أقل، فضرب السكين في اللوح بقوة وتركه معلَّقًا، نظر إلى بضع أسطوانات حديدية صغيرة كانت بالدرج مع السكاكين تتحرك مرتجَّة كلَّما فتح الدرج، فحملهم جميعًا بين كفيه ووضعهم فوق المكتب، ونظر إلى كابل شاحن لابتوب معلَّق في مقبس قريب، شدَّه فانخلع ثم قطع سلكه، وبسكينٍ صغيرٍ جعل يخلع من الكابل أسطوانة صغيرة وثقيلة في حجم عقلة أو اثنتين تعلق في أغلب

كابلات الشواحن عند منتهاها، ثم جعل يشدها من الكابل حتّى انخلعت تمامًا، فنظَّفَها بالسكين من بقايا السلك ووضعها جوار مجموعة الأسطوانات الأخرى، وكانت تشبههم مع تفاوُت الأحجام، ثم أخرج قلمًا وشرع يريق حبره على مجموعة أوراق، يرمي بعضهم ويحتفظ بالبعض حتّى انتهى، ثم أحرق ما رمى وحمل ما حفظ، أغلق اللاب توب، تناول أنفاسه، ثم خرج من غرفته، وبيده مجموعة الأوراق، كانت لي لي نائمة، وبجوارها مطفأة مليئة بأعقاب السجائر، أيقظها بلمسة بسيطة على كتفها، وقال:

- إيه رأيك ننزل إسكندرية.

أومأت موافقة دون تفكير، وفي سعادة بالغة، ترك يونس تلك الأوراق على أقرب طاولة منها، ثم أخرج من جيبه العقلات الحديدية ووضعهم أمامها ثم رحلَ سريعًا، ومن دون أن يتفوه بكلمة واحدة، كان يعلم أن فضولها سيأخذها لهم، فدخل غرفته وأغلقها، وتركها تقرأ ما كتب بهدوء.

«حبيبتي لي لي، تسألينني كثيرًا عن طبيعة عملي الذي لم أخبرك به حتى الآن، لا تقلقي أنا لست مجرمًا، أو هكذا أظن، ولكن أن أخبرك بطبيعة عملي فهذا شيء يُعرِّضك ويعرضني لخطر بالغ، ليس هذا انعدام ثقة، ولكن فور أن تعرفي فأنتِ

أفكارك مكشوفة، وفي هذا العالم بشر لا يحتاجون البوح حتى يدركوا ما يدور في الأذهان، القصة أصعب وأعقد من أن تُحكى، ولكني سأسرد لكِ في تلك الأوراق كلَّ ما أقدر عليه، حينها سيتوجب عليكِ حفظ السر، وتلك مهمة صعبة ومعقدة لأبعد الحدود، أن لا تنظري في أعين الناس من اليوم، وأن تصنعي من هذه العُقَل الأسطوانية التي وضعتها لكِ طوقًا تضعينه دائمًا حول رأسك، والآن قبل أن تقلبي الصفحة، عليكِ أن تتخذي قرارك جيدًا بالقبول أو الرفض، لأن الأمر خطير ولا رجعة فيه..»

لكنَّها لم تفكر لحظة، قلبت الأوراق بفضولٍ بالغٍ، وجعلت عينها تأكل الكلمات بلا تريث.

«أنا في غاية الشكر لأنك تقرئين هذه الورقة، فكَمْ أحتاجُ إلى البوح، أن أشاركك أسراري التي طالما رغبت أن تعرفيها، وليس هناك طريقة لأحكي لكِ سوى بالكتابة، وسأشرح لكِ لماذا، ولكن القصة كما أخبرتك معقدة جدًّا، إن تلك العُقَل التي وضعتها لكِ عبارة عن أسطواناتٍ صُنِعَت من مادة الفريت، وهي تعمل على تشويش الموجات المنبعثة من العقل وتغيير مسارها، فالعقل البشري مثلُه مثل أغلب الأجهزة ينتج نوعًا من الموجات

القصيرة، وهناك فئة من البشر لَهُم القدرة على استقبال وترجمة تلك الموجات، خاصة في حالات الخوف والقلق، لقد اكتسبت تلك القدرة في جزيرة الدولفين، هناك الكثير لأكتبه، ولكن أرغب أولًا في أن أحكي لكِ كيف كانت طفولتي البائسة..

جئت الدنيا نتاج عشق محرَّم، كانت أمي تعشق أبي الذي لا أعرف شكله ولا اسمه، كانت تتلقى أسوأ معاملة قد تتلقاها ابنة من أهلها، أسرة فقيرة وكبيرة جدًّا، سبعة أطفال وزوجان، فلما اكتشفوا بأمر حملها أهالوها ضربًا وطردوها من البيت، أو هي التي هربت، حينها اعترضها عم سليمان الساعاتي، أحد سكان المنطقة، وعدها أن يتزوجها في السِّرِّ وأن يشتري لها بيتًا وأن يكتبني باسمه، كان متزوجًا، وكان عظيمَ البطن والجسد طويلَ البنية، وكانت أمي نحيلةً قصيرةً وجميلةً، وافقت بعد ضغطٍ منه وقلَّةِ حيلة منها، فلم تعد قادرة على العيش عند صديقتها لفترة طويلة، خاصة أنني قد بدأتُ أكبر في بطنها، فعاشت في شقة صغيرة جدًّا اشتراها عم سليمان، تطل على سوق شعبي، وكان عم سليمان يأتيها مرةً أو اثنتين في الأسبوع، ومع الوقت كبرتُ قليلًا، ورأيت عم سليمان يمارس تسلُّطه على أمي التي انطفأت في عينه بعد أكثر من عشر سنوات، وكان في آخر أيامه يتعاطى

المخدرات بكثافة، لم تعد مهنة تصليح الساعات تجلب دخلًا مثل سابق عهدها، لم تعد الساعات موضة، ولم تبقَ من ضروريات الحياة بعد انتشار الهواتف، ولم يعد عم سليمان مثل سابق عهده، بعد أن ادمنت المخدَّراتُ شراييِنه، أمسَى شريرًا، وكأن جنَّ جنونه، أحيانًا يأتي ليضربها ثم يمشي، وبالطبع كان يعاملني أشرَّ معاملة، كان يناديني بابن الحرام، وعملت أمي بائعة خضار في السوق بعد أن انقطع عن إرسال الأموال، يقول لها «اعملي بلقمتك كفاية إني ستَرْتِك انتي وابنك» وفي المناطق الشعبية لا يُخفَى سر.. قصة أمي تناقلتها الألسنة في الخفاء، حتَّى أنا أول ما عرفتها عرفتها من سيدة بائعة في السوق، لا أعرف ما الذي يجعلها تحكي قصة مثل تلك لطفل تجاوز العشر سنوات بقليل «شغل نسوان» كما تقول أمي، حُفِرَت القصة في رأسي، وسألت أمي عنها بعد تردُّد، فجعلت تحكي لي كيف كانت تتعرض للضرب من أهلها، وكيف أن أبي كان أول شخص يحنو عليها، وأنها تزوجته في السر ولكنَّه اختفى تمامًا بعد خبر حملها، كانت طيبة جدًّا، خفيضة الصوت بسيطة الملامح، ولذلك كانت هدفًا جيدًا لتسلط المكبوتين ضعفاء الأنفس، كم كنت أكرههم، أصبحت ساخطًا كارهًا للمجتمع وما فيه، كم كان يعصبني أن يناديني أحد الأطفال بابن

الحرام، كنت مزحتهم، منبوذًا من بينهم، كل يوم أعود لأمي بكدمة في وجهي إثر مشاجرةٍ معَ أحدِ أطفال الحي، قررت أمي أن تترك المنطقة، طلبَت من عم سليمان فضربها ضربًا مبرحًا، كان في أواخر أيامه يأخذ منها الأموال بدلًا من أن يعطيها، وذلك ليشتري بها المخدرات، وذات يوم استيقظت على صوت شجارٍ في الشارع، نظرت من النافذة فكانوا حريمَ المنطقة يضربن أمي. ذهبت إلى الباب فكان موصدًا، جعلت أبكي وأصرخ من الشباك حتّى رأيتُ عم سليمان قادمًا من بعيد، لمّا حضر هدأ الخناق وأفسحوا الطريق، فكان أول ما فعله أن ضربها على وجهها صفعة رنَّت لها أذني، ثم جعل يجذبها من شعرها ودخلا إلى البيت، وبالداخل كان يضربها بمكنسة خشبية، لم يتوقّف حتّى بعد أن انكسرت وسقطت أمي على الأرض دامية، حاولت أن أخلّصها فكان كل مرّة يدفعني بكفِّه بعيدًا ويشتمني بابن كذا وابن كذا، حتَّى دخلت فأخذت السكين وقتلته بستِّ طعناتٍ، افتتحتهم باثنتين في ظهره، فتركها ونظر إليَّ بعينٍ واسعة تملأها الصدمة والفزع، فأكرمته باثنتين أخريين في بطنه حتَّى سقطَ وسالت الدماء من فمه، وظهرت أمي من خلفِهِ لا تنطق ولا تتحرك، فجعلني منظرها أزيده طعنتين أخريين بغِلٍّ شديدٍ، وجعلت أبكي بجواره، وبعد سلسلة أحداث

طويلة دخلت سجن الأطفال في مصر، وهناك كان الأطفال أسوأ من أطفال المنطقة الشعبية، وعرفت أن أمي ماتت ذلك اليوم، ثم جاءني الجنرال، كان شابًا وسيمًا وطيبًا، عاملَني بلطفٍ ووعدني أن يخرجني من هذا المكان ويأخذني إلى جنة الله على الأرض؛ جزيرة الدولفين..

***

الغردقة

لا يمكنني أن أنزل بجثتك كاملة على السلم، فأنتِ ثقيلة جدًّا يا عزيزتي، كما أنني لا أملك سيارة خاصة لنقلك، وإن أذبت جسدك قد تتلف المواسير وتفضحني كما رأيت في مسلسل أجنبي شهير، وأنا لم أدرس الكيمياء، ولكنّي درست التاريخ؛ لذا سأعاقبك على طريقة الأجداد، أن أقطِّعَك أشلاء، ثم ألقيكِ على مراحل في النفايات، سوف أذهب كل يوم في منطقة بعيدة عن الأخرى، مثل عقاب المصريين القدماء للمذنبين، سأجعل روحُكِ تتوه ولا تعثر على جسَدِك، كما فعل «ست» في «أوزوريس». بحثت في المطبخ عن سلاح يعاونني، لكن لم أجد شيئًا ملائمًا، فراودتني تلك الفكرة، ابتعت صاروخًا متوسط الحجم، وطارة قطع حادة، وذهبت إلى المنزل، ولكن صوت الصاروخ عالٍ

جدًّا، سيفضحنا يا عزيزتي، ويلفت انتباه عم فتحي المتطفل، الأمر يتطلب أغنية صاخبة، من النوع الميتال، لتغطي عزف الصاروخ على أوتارك، الحمد لله أنني أملك مشغل صوت صاخبًا، وأشكرك أنّك أنت من ألحَّ على شرائه، لولاكِ لما استطعت تقطيعك، شغَّلت أغنية واحدة وكررتها، fall out boy - the phoenix الصوتُ على أعلاه، وصوت الدقات صاخب تتراقص معه محتويات المنزل، ارتديت نظارة البحر، ثم قمت بتوصيل الصاروخ، دارت عجلته بسرعة تجعلني أفهَمُ لماذا يدعونه هكذا، كم كان صعبَ التحكم به، فهو إذا دار يرتدُّ فجأة، لكنِّي تحكمت به بعد تدريبٍ قليلٍ، وجعلت الطارة الدوَّارة تقترب ببطءٍ من كتفك حتى قامت بملامسته، فباغتتني نثراتُ الدم تمطر على وجهي، وعلى زجاج النظارة، لكنّي لم أكترث، حاولت أن أصب تركيزي على نغمات الأغنية، تتراقص رقبتي صعودًا وهبوطًا مع دقات اللحن، وأحيانًا كنت أندمج حتى إنني أوقف الصاروخ لأغني قليلًا.. ولكن رغم ذلك، وعلى عكس ما توقعت، لم يأخذ الأمر وقتًا طويلًا، وأكثر ما تطلَّب وقتًا ومجهودًا كان عملية التنظيف نفسها، بضع ساعات حتّى توزَّعَت على سبعة أكياس مُحكَمي الغَلْق مُتباينِي الحجم، صحيحٌ أنَّ الملك سِتْ قطَّع أوزوريس إلى اثنين

وأربعين قطعةً، ولكنِّي سأكتفي بسبعة، استحممت، ثم ارتديت بدلةً أنيقةً، أخذت أوَّل كيس في يدي، وخرجت من البيت واثق الخطوة أمشي ملكًا.

ولكن ذلك لم يَدُم كثيرًا، فلمَّا خرجتُ إلى الشارع، وبعد دقائق من المشي شعرت بشيءٍ غريبٍ، ذلك الطنين في أذني لن أنساه طالما حييت، أصوات مؤلمة، ليس مجازًا، ولا تشبيهًا، بل فعلًا مؤلمة، كأنها تتخلَّل طبلة الأذن مثل مسامير تدخل بسرعة الصوت فتزاحم عقلي وتعصره عصرًا، يكاد ينفجر من الألم، كان النَّاسُ لمّا ينظرون إليَّ أشعر وكأنهم يعرفون ماذا أحمل بين يدي، تلك المصيبة الخفية بين طبقات من أكياس بلاستيكية، ذراع ورجل منفصلتين، أنظر مرارًا وتكرارًا إلى ما أحمل خشية أن يكون ظاهرًا، أو مثقوب يقطّر الدماء من خلفه، وجعلت أنظر للناس في أعينهم كالذي على رأسه بطحة، وكأن خوفي من أن يعرفوا ما أحمل فتح نوافذ أفكارهم على عقلي، فكان دويًّا صارخًا، وكلمات متداخلة غير مفهومة وصفيرًا صارخًا كصوت الصاروخ اللعين، تصببت عرقًا كأن الغردقة غدت حمَّام ساونا، احمرَّ وجهي وابتلت ثيابي، تباطأت خطواتي واختلَّ توازني، ولما خبطت إحدى المارة الكيسَ بقدمها، خفق قلبي حتَّى كاد ينشق نصفين، رمقت السيدة العابرة الكيس بفضول وتقزز

ثم نظرت إليَّ شزرًا، ومضيت مسرعًا نحو ناصية الشارع العمومي حيث يمكنني أن أوقف سيارة أجرة تقلني لمكانٍ بعيدٍ وهادئٍ، كان الوقت ليلًا، ورأيتُ مصابيح السيارات العابرة تتفجر في عيني كبقع لونٍ ثقيلة سقطت على لوحة بيضاء، فلم أرَ أيَّ تفاصيل من بين الأشعَّة، ضعف بصري وضلَّت رؤيتي، وكأنني استنفدت كل مخزوني من الطاقة، وشعرت بدوار رهيب، رفعت كفي كي أشير أن تتوقف سيارة، وأثناء ذلك كانت رأسي تميل إلى اليمين، لم أدرك هذا حتى ارتطم جسدي بالرصيف مدويًا، ورأيت كيس اللحم بصورة بطيئة يفلت من كفي ويقع من فوق الرصيف معانقًا الأسفلت، وتجمَّعَت أوجه الناس من حولي تتفحصني، قالوا أشياء ولكن تلاشت الأصوات، وسقطت عيني، فقدت الوعي بهدوء، وانسدلت ستارة الإظلام.

الفصل الرابع

جزيرة الدولفين

منصة عالية، لونها أبيض مطعمة في أطرافها بالأزرق السماوي الرقيق، يقف خلفها الجنرال، يبدو في منتصف الثلاثينيات، يقف بثقة وابتسامة وصدر رحب، رئيس يخطب في الجماهير بعد انتصار عظيم، وخلف المنصة عدد كبير من الأطفال والشباب، جميعهم يرتدون نفس الملابس، ونفس القناع البلاستيكي الأبيض، وكلهم ينصتون باهتمام بالغ وعينٍ يملأها الرهبة و الفضول لما يقوله الجنرال:

- الدولفين هي المضاد الحيوي اللي بيحافظ على استقرار العالم، جهاز المناعة لكوكب الأرض، إحنا تأسَّسنا من بعد الحرب العالمية الثانية، وإحنا السبب إن مفيش حرب ثالثة، قبلينا كان الوضع على الأرض مختلف تمامًا، ولو انتهينا هتبدأ حرب عظمى تقضي على ثلثين سكان الأرض إن لم تقضِ على الكوكب بأكمله، إحنا جنود الأرض، وذراع القوة لحكومة العالم، حكومة سرية لا يمكن الثورة عليها ولا مقاومتها، كل مهمتها أنها تحافظ على استقرار موازين القوى والموارد، وإحنا بنستمد عقيدتنا منهم، كل المسؤولين مهما كان حجمهم

مجرد أقنعة ليها، ومفيش مسؤول سواء صغير أو كبير يقدر يخرج عن السيناريو المكتوب ليه، ولو حصل بيجي دورنا، ومهمتنا الخطيرة والسرية، أنا كنت واحد منكم في يوم من الأيام، ووصلت إني أكون مسؤول عن الجزيرة دي، جزيرة الدولفين، ست جزر بس موجودين في العالم، مؤَمَّنين كويس، وغير تابعين لأي مياه إقليمية، وجزيرتنا هي المسؤولة عن الشرق الأوسط كامل..

***

كان يونس يراقب «لي لي» وهي تقرأ كلماته من خلف الباب البعيد الموارب، وجهه يملأه قلقٌ وسعادةٌ، ووجهها تملأه الدهشة، يسمع يونس أفكار «لي لي» وهي تقرأ أوراقه فينجلي في رأسها صوته هامسًا:

«قضيت على تلك الجزيرة خمسة عشر عامًا أخرى، هناك لم أرَ وجهي حتّى نسيت شكلي، كنَّا جميعًا نرتدي نفس الأقنعة، محظور علينا أن نخلعها، فهي ترمز أن لا فرق بيننا في أي شيء، مهما كان شكلنا أو من أي مكان جئنا، وكان بيننا الأسمر والأبيض والأشقر، وكلنا من بلاد عربية، ولنا أرقام تُوضَع كوشم على ظهور الأكفف، تعلِّمنا فنون القتال والتاريخ والسياسة وعلوم عدة، كانت

جنَّة حقًّا، ولم تكن الأقنعة مزعجة بعد أن اعتدناها ورسمنا عليها، كنت أرسم دولفين، فكم أحببت تلك الجزيرة، كانت مهربًا من عالم قذر عشت فيه سنواتي القليلة، تعهدت فيها أن أحفظ السلام على هذا الكوكب، فذلك كان الهدف من تدريبنا، عندما نتخرج منها فإننا جنود الله في الأرض، وُجِدنَا لنحفظ السلام عليه، وفي سرية تامة، وكنت من أَكفأ المتدربين، أقسمت على العقيدة وعلى أن أحفظ السر، وحان وقت شيفرة الدولفين؛ عملية جراحية يؤهل لها مَن أكمل تدريبه، لا أعرف ما هي شيفرة الدولفين بالضبط، أو ماذا يحدث في تلك العملية، لكن بعدها نكون قادرين على قراءة الأفكار، ولكن جنود الدولفين لا يقرأون أفكار بعضهم، وذلك بسبب شريحة يزرعونها لنا في رؤوسنا، وأنهم من خلالها يمكنهم إيقاف تلك القدرة عنَّا متى أرادوا وتشغيلها متى أرادوا، ولكنَّهم لا يقدرون على قراءة أفكارنا من خلالها، واكتشفت أيضًا أن تلك الشريحة تسجِّل لهم صوتًا ولا تسجل صورة؛ لذلك لا وسيلة لي أن أتواصل معكِ دون عِلمهم إلا بأن أكتب هذا في هدوء، وأن لا تبدي أي رد فعل يجعلهم يشعرون بأي شيء، لأنهم يسمعوننا ثانيةً بثانيةٍ، ولكنّي لا أريد أن أقحم عقلك في تفاصيل كثيرة، لأن لا زال هناك الكثير

لأقوله، كان يومًا كبيرًا عندما دخلت غرفة العمليات لأكتسب شيفرة الدولفين، في ذلك اليوم أصبحت قارئ أفكار، ولكنَّ ضجيجًا رهيبًا احتل عقلي لساعاتٍ، وجاءني دوَّار مُزمِن. بعد العملية هزلت وفقدت الكثير من الوزن، وأخذت وقتًا وتدريبات عدّة حتّى أتحكم في تلك القدرة، وأُبدِّد الضوضاء من عقلي، والأهم من ذلك أنني خلعت القناع عن وجهي لأول مرة منذ خمسة عشر عامًا، تخيلي أني لأول مرة أرى وجهي مذ كنت طفلًا، وكنت قد نسيته تمامًا، جعلت أتأمل نفسي لساعات حتى أتعرف عليها، حتى جسدي الذي كنت أحفظه قد ضَؤُلَ بعد العملية، ولكنِّي الآن أمتلك شيفرة الدولفين، من ذَوي القدرات الخارقة، قارئ للأفكار، أحد جنود الله على الأرض، وواحد من خريجي جزيرة الدولفين العريقة، كنت أشعر بفخرٍ شديدٍ، وقمت باغتيالات وعمليات عدة وكِّلت إليَّ، ضدَّ سياسيين وصحفيين ورجال أعمال وضباط ومحركي الرأي العام في مختلف بقاع الوطن العربي، لأننا تخصصنا في تلك المنطقة، أدَّيتُ مُهِمَّاتي كلَّها على أكمل وجه، لم أخفق مرة، ولنجعل مغامراتي السابقة موضوعًا نتحدث عنه فيما بَعد؛ لأنني أحتاج الآن إلى مساعدتك، أهم شيء أن تتذكري ألا تناقشيني جهرًا في أيٍّ من المكتوب، وألّا تثيري الشبهات، لأن

هذا يعرض كلانا للخطر، وسنتواصل فيما بعد عبر رسائل نصيَّة على هواتف خاصة سأشتريها لكِ من مصر، لم أعد أثق في جماعة الدولفين مثل سابق عهدي، هناك أسرار دفينة يجب أن تُكشَف، لقد أخبرتك أنني على تخاطُر بسيط مع شاب يدعى محمود صلاح، واكتشفت مؤخرًا أنه من الغردقة، إنه يعاني من اضطراب شديد، وقد قتلَ زوجته ويحتاج إلى مساعدتي، لقد فقد وعيه في منتصف الطريق وهو الآن في إحدى مستشفيات الغردقة، عليَّ أن أقابله، إنَّه يشبهني كثيرًا، مع فروق بسيطة، ولكن الجنرال -وهو قائد دفعتنا في جزيرة الدولفين- كان يسمع ما حكيته لكِ، وقد نهاني عن البحث عنه بطريقة أثارت فضولي، وأرسلني لاغتيال رجلٍ انشقَّ منذ زمن عن جماعة الدولفين، شعرت كأنه يهددني، وما أزاد الشكَّ ضِدَّهم في قلبي آخر مهمة ذهبت إليها، كانت ضد المحامي المصري شريف غراب، لقد أخذت منه ملفاتٍ كاد أن يستخدمها ضدَّ سياسيين ورجال أعمال ويُهدِّد بفضحهم وحبسهم، ولمّا اطّلعت على تلك الأوراق وجدت مصائب كارثية، منها مثلًا ملفات تهريب مخدرات وتوزيعها في مختلف بقاع الوطن العربي، أسامي موزعين ومصنعين وتجار، كميات وأرباح مهولة، وتواطؤ مع سياسيين كبار، ما الذي يفيدهم

إن ساعدوا في التستر على أمثال هؤلاء، كيف تكون في ذلك مصلحة الناس واستقرارهم، إنهم يصنعون مدمنين أمثال عم سليمان الساعاتي، وفكَّرت أنني ربما كنت مغيبًا لسنوات طويلة، وأنني أدافع عن العقيدة الخاطئة، ولكن حان لتلك الغيمة أن تنقشع، أنا على ثقة بأنهم سوف يوقفون قدرتي على قراءة الأفكار إذا قابلت ذلك الرجل، ولكنّي أملك قدرة على قراءة الوجوه، أستبعد أن يكون ذلك الرجل متواطئًا معهم، لأنّي قد أقتله فعلًا فورَ رؤيته، وإن تأكدت أنَّه يحمل حقائق ولو بسيطة عن شيفرة الدولفين، فهي تهمني، ولدي خطّة...

***

مستشفى الغردقة

فتحت عيني على نور أبيض، أتساءل أين أنا؟ ومَن أنا؟ ذاكرة بيضاء، وجعلَت الصورة تتضح شيئًا فشيئًا، لمبتا نيون معلّقتان في سقف رطب، دهان كاد يتساقط، اللمبتان المتوازيتان إحداهما مضيئة على أكمل وجه، والأخرى هزيلة حمراء عند طرفيها، شبَّاك مُغلَق، خلفَهُ شمسُ النهار تتجلى أنوارها رغم أنها مغلَّفة بستارة لم تفلح في إخفائها، لا بُدَّ أنَّه يومٌ جديدٌ، جعلت دقائق أتأمل هذا المشهد الثابت ولا أذكر شيئًا، ثم سمعت صوتًا يردد آهاتٍ، نظرت

على يميني فكان كهل في فراش مستشفى يعلِّق محاليل وجهاز تنفس، وكنت أعلِّق أنا أيضًا محاليل، وسمعت أفكاره بصوت هزيل مع كل نفَسٍ يأخذُه «لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت» ولمّا تذكّرت الموت، تذكَّرت كلَّ شيءٍ، فنهضت من مكاني بغتةً، خلعت المحاليل وسألته بتوتر:

- فين الكيسة السودة اللي كانت معايا؟

رمقني بهدوء، لم يجِب، ولكن أفكاره تقول أنّه لا يعرف، خرجتُ سريعًا إلى طُرقة واسعة، وبفزع شديد سألت أول ممرضة عابرة:

- فين الكيسة السودة اللي كانت معايا؟

لم تكد تجيب حتى تركتها عدوًا نحو مكاني الذي استيقظت فيه، فوجدت الكيس يركد جوار السرير في سلام، لا بُدَّ أن أحدًا حمله إلى هنا وهو لا يعرف أنَّه لحم طازج، أخذته ورحلت من المكان عدوًا، لم تهدأ قدمي، ولم يوقفني رجل من الأمن ولا عامل بالمستشفى إلا إذا دفعته جانبًا ومررت، أكملت الطريق بلا هوادة، وأطحت بالكيس الأسود في أول صندوق قمامة قابلته، ذلك ولم تتوقف قدمي عن العدو، حتّى وصلت إلى شاطئي المفضل، شاطئ الفيروز، ألهث، أتصبب عرقًا، خلعت الجزمة وجاكيت البدلة فقط على رمال الشاطئ، ثم ألقيت

بنفسي في عناق البحر، غطست بكامل جسدي في الماء، وارتخيت.

على الشاطئ كان القليل من الناس يمددون على شيزلونج ويستمتعون بشمس الغردقة ونسيمها، يتساءلون من هذا المجنون الذي يغطس بالبدلة، ولكنِّي لا أهتم، أبسط عضلاتي وأغسل ذاكرتي وأعقِّمها بماء البحر المالح، كنت أخرج فقط لأتناول أنفاسي ثم أعود هاربًا، حيث الهدوء والصمت، ولكن تحت البحر تسللت إلى عقلي صورتها كعروس البحر، سارة خطيبة الدكتور بشير، وكأنني لمحتها تسبح بعيدًا وحيدة، كما رأيتها أول مرة، فخرجت سريعًا، مسحت عيني من الماء وجعلت أبحث عنها في كل اتجاهٍ، لم أعثر عليها، وأقنعت نفسي أنها لم تكن إلا مجرد خيالات، ربما.. وكدت أعود من حيث أتيت، حتّى وجدتها تتجلى أمامي مرة أخرى، كالشمس تشرق من خلف البحر، كانت هي برِمشها العالي وشعرها ذي التجاعيد الحرَّة المتعجرفة، على بُعدِ أمتارٍ قليلة تمسح كتفيها بكفيها وتعدل شعرها، جعلت أبحث عن بشير في الجوار، أو أيٍّ من روَّاد اليخت المملين، ولم يكن سواها، رفعت ذراعي وناديت مرتين، فانتبهت:

- أستاذ محمود..

نادت ووجهها تملأه سعادة غير متوقعة، نزلَت تحت الماء ونزلتُ خلفها، دفعنا البحر بأقدامنا، وتقلَّص حجم الماء بيننا، وكنَّا قابَ قوسين، مدَّت كفَّها لتسلِّم تحت الماء، كما التقينا أول مرَّة، ثم خرجت رؤوسنا نحو النسيم، قالت:

- إيه اللي إنت لابسه ده، ليه كده.

- مش عارف، طلبت معايا أنزل البحر.

ضحكت، وقالت:

- إنت مجنون.

كم أفتقد أن يضحك لي أحدهم، كانت تفكر أنني ألطف من خطيبها، كانت تتمنى أن يكون زوجها بهذا الجنون، وكانت أفكارها تتجلى أمامي كالسمك في حوضٍ شفَّافٍ نقيٍّ، قالت بدلالٍ وصوت الموج الهادئ يصاحبها:

- عامل إيه؟

لم أجِب، سرحت قليلًا وتذكَّرتُ آخر ما حدث على اليخت، وهي أيضًا تذكرته، فانتابني ضيق وصمت لوقت قصير، ثم سألتُها فضولًا:

- انتي بتيجي هنا كتير؟

- إنت اللي قلتلي على المكان ده، لما كنا في اليخت، فاكر؟

قبل أن تقول ذلك جعلت تسبَحُ مبتعدة، ترفع صوتها في آخر كلماتها حتَّى أسمعها، فتبعتها، وكان قميصي الذي تشرَّب الماء يجهدني في السباحة، ولكنّي لحقت بها، وسألتُ بأنفاسٍ متلاحقة:

- هو إيه اللي حصل بعد ما أنا مشيت؟

- اليوم باظ.. ومشينا.

أحزنتني كلماتها، فوقفت مكاني، ولمّا لاحظت هي ذلك وقفت أخيرًا، اقتربَت وقالت:

- وده كان كويس بالنسبة لي، أنا أصلًا مكنتش عايزة أتكلم قُدَّام حَدّ، بشير اللي أجبرني آجي.. ما تيجي نقعد بره شوية.

لم تعد الشمس ثقيلةً على البشرة، كانت ليِّنة كالقطن الدافئ، على الأرجح كنَّا بعد العصر ببضع ساعات، لم آخذ هاتف ولا أي شيء يخبرني الساعة، جيوب البدلة فارغة إلا من بضع عُملاتٍ ورقية تجيد التحدث مع البشر أفضل منِّي، خلعت القميص المبتل، وضعته في مكان لا تظلُّه شمسية الشاطئ، وطلبنا عصيرًا، طلبَت هي مانجو، وطلبتُ كيوي، ومددنا مسترخيين، نولِّي وجوهنا شطر الأحمر الساحر، أنصت إلى أنغام الموج المتقطعة،

حتَّى سألت:

- هي كانت إيه مشكلتك؟

- مشكلتي!

- قصتك اللي كنت المفروض تقولها في اليخت.

- إشمعنى؟!

- يعني.. تقدر تقول فضول.. لو مش عايز تحكي براحتك على فكرة.

قالت ذلك وأدارت وجهها، قرأت التلعثم في أفكارها، فضولها تجاه أسراري يذكِّرني بقطة تطارد خيطًا رثًا، فإذا أمسكت الخيط لن تأكله، وإذا حكيت السر لن تصدقه، ولكن متعة الملاحقة، لمّا سألَت كانت تنظر إلى عينيَّ، وكأن أبصارها تخترق مقلتيَّ، هي على الأرجح معجبة بعيني القاتمة المثيرة للفضول، كما أنا معجب بهذا الرمش المغوار، وجَّهت عيني صوب نقطة التقاء البحر بالسماء، تناولت أنفاسي وقلت بهدوءٍ شديدٍ:

- أنا بقرأ الأفكار.

ردُّ فعلٍ مُتوقَّع.. انتبهَت، واعتدلت، لم تنطق، ولكن سألت بعامة ملامحها ولغة جسدها: «معقول؟!» وأردفتُ موضحًا:

- أصوات بتجيني أحيانًا وتختفي أحيانًا، بسمع

فيها أفكار الناس، قدرة مش بعرف أتحكم فيها، الناس مش بتصدقني، فاكرِنِّي موهوم، بس أنا عارف إني صح.

- يعني تقدر تقولي أنا بفكر في إيه دلوقتي؟

سؤال آخر متوقَّع، مثلها مثل أي شخص أخبره، يسأل باستنكار، وإذا سأل انطفأت أفكاره عن عقلي، وعجزتُ عن التلبية، ولكنَّها كانت مختلفة، أعينها متَّقدة، وأفكارها جلية، كانت تصدقني، وهناك شيء آخر، قصة عندها تريد أن تحكيها، قصة كثيفة التفاصيل، أمر يخص كروت ولعبة ومواقع وبيانات محذوفة، لا أعرف، ولكنّي أجبتها بما حاولت أن تفكر فيه بابتسامة وثقة:

- عايزة تدوقي الكيوي؟

شهقت واندهشت، كان ذلك ما فكَّرت فيه وأرادت أن تقوله، ولكنَّها لم تصدق بَعدُ، ربما رأيت عينيها تنظران إلى الكيوي فقلت ذلك، فاستنكرت وقالت:

- عادي، إنت شفتني ببص عليها.

وقبل أن تكمل جملتها أردفت:

- وإن في موضوع عايزة تحكيهولي يخص حاجة تعرفيها عن لُعبة، وجماعة اسمها الدولفين، ومن شوية كنتي بتفكري إن عينيا حلوة.

قُلت ذلك وأنا أغمز بعيني مازحًا، وكان ردُّ فعلها أن صرخت بصوت نبَّه أغلب من حولنا، حتّى أنها خبطت العصير فانسكب على الرمال، ثم وقفت وقالت:

- لازم تيجي معايا دلوقتي حالًا، في حاجات لازم أوريهالك.

***

- شششش.. الدقيقة خلصت.

قبل تلك الكلمة كانت قد انطلقت من مسدس يونس طلقةٌ اخترقت جسد الرائد عنان، فأراقت الدماء وملأت الفراش الأبيض من حوله، ولكنَّها ضربة في غير مقتل، لم يفقد الرائد عنان حتّى وعيه، ولمّا أمره يونس بالصمت، أومأ الرائد عنان برأسه أكثر من مرة، وملامحه تملأها الدهشة والفزع، وقد أذعن واستكان دون كلمة، ثم مدَّ يونس يده ليأخذ من باقة الورد وردةً، حينها أشار بإصبعه مرّتين إلى جواب صغير مرفق مع الورد مسبقًا، ثم نزع الوردة ورحل، رفع الرائد عنان كفَّه الدامي بعدما أمسكَ به كتفه ليوقف النزيف، انتشل الورقة بيدٍ مرتجفة، خلعها وجعل يقرأ خطَّة يونس التي تم تنفيذها.. قليلًا حتّى أنهى كلَّ ما فيها، ثم قام زاحفًا، وأخذ من خزانته كتابًا صغيرًا، قديمًا مهترئًا

وقد أكله السوس، أخفى به الورقة الصغيرة الدامية، ووضعه في جيبه، رفع سمَّاعة الفندق وقد طلب إسعافًا بأنفاس متلاحقة وصوت مبحوح، ثم سقطت السمَّاعة من كفِّه معلَّقة على سلكها، وسقط هو على الفراش ساكنًا.

***

(بعد ذلك ببضع ساعات)

كانت «لي لي» تجلس وأمامها الرائد عنان وكتفه المصابة مغطاة بقطن وبلاستر، وذراعه معلَّقة بشريط في رقبته، المكان دكانة صغيرة غير مكتملة التشطيب، كراسيها ملطَّخة ببقع طلاء جافة، في منطقة غير كثيفة السكان، قالت «لي لي»:

- زي ما يونس كتبلك في الورقة، إنت هتكتب كل المعلومات اللي تعرفها عن شيفرة الدولفين، وهو هيدبر موضوع هروبك، أهم حاجة تختفي تمامًا عن الأنظار.

- انتي فاكرة إن الحكاية دي هتدخل عليهم، دول مش هيسيبوه غير لما يجيبلهم جثتي، كل اللي المفروض يعمله يونس إنه يخلع الشريحة اللي في دماغه عند دكتور جرَّاح كويس، يضرب أوراق جديدة ويختفي، وبرضو هيجيبوه لو من بطن الحوت، هي مسألة وقت.

قال ذلك وقد أرهقته الكلالة، وفي صوته الإعياء والضعف، أجابت «لي لي»:

- للأسف يونس لسه مقررش يسيبهم، هو بس محتاج يسبقهم بخطوة، محتاج يجمع معلومات أكتر عنهم، ومهمتك إنت إنك تقنعه يبعد عنهم.

في ذلك الحين رنَّ هاتفها رنَّةً قصيرةً، أخرجته سريعًا من حقيبتها القرمزية، التي تليق مع لون أظافرها المثير، ولما أضاء الهاتف شدهت، وشهقت، وقالت:

- طالبين منه فيديو وهو بيدفنك في الصحراء.

أصابه الفزع فورًا، وجعل ينتحب ويقول:

- أنا قلت، أنا قلت إنهم مش هيسيبونا في حالنا، أصلك متعرفيهمش، الموضوع ده أكبر بكتير من مجرد عصابة وشوية اغتيالات، دي عقيدة وسياسية، دول موجودين من زمان، وليهم قصة طويلة، ومفيش حد هيقدر يوقفهم..

- اهدى متقلقش، أكيد في حل، هنشوف حل.

قالت لي لي، آملة أن تهدئ من روعه، أن تطمئنه حتّى يتسنّى لها التفكير في حل لتلك الورطة.. لكنّه لم يتمالك أعصابه:

- حل أيه، هتجيبو حد شبهي وتقتلوه تدفنوه، ولا

هتعملولهم فيديو فوتوشوب، خلاص طلاما ركزو معانا ومش واثقين فيه يبقى مفيش حاجة هتخلينا نخدعهم.

ورنَّ هاتفها مرَّةً أخرى، هذه المرَّة في الرسالة كلمة واحدة «النهارده» قرأتها في صمت، لم تُرِد أن تفزعه، ولكنّه أردَفَ بسخرية:

- النهارده، طبعًا عايزين الفيديو النهارده، علشان ميلحقش يدبَّر أي خدعة، إذا مكانوش اكتشفوا إني لسه عايش أصلًا..

- طيب احتياطًا لأي ظروف، ممكن تحكيلي المعلومات اللي تعرفها بسرعة؟

- أحكيلك! انتي فاكراها حدوتة ولا كلمتين هقولهم، انتي مش فاهمة حاجة.

كان مذعورًا، أمَّا هي فلم تجِب، جعلت تتحرَّك ذهابًا وإيابًا، تفكِّر في حل لتلك الورطة، تقلِّب أفكارها، لقد دخلت هذا العالم في يومٍ وليلة، من أجل يونس تفعل أي شيءٍ، جعلت تدبِّر وتتروَّى، لحظات طويلة من التوتُّر، حتّى حضرتها الفكرة، برقت في رأسها، فأخرجت الهاتف سريعًا وكتبت كلمتين فقط «أنبوبة أكسچين؟» ضغطت إرسال وارتقبت ردًا، حتَّى جاءتها رسالة من يونس، قرأتها في جذلٍ منبسطة الأسارير، وقد أعجبته الفكرة وأقرَّ

بتنفيذها وأرسل التعليمات، فقالت توجِّه كلامها للرائد عنان:

- هنكلم الراجل بتاع الإسعاف، ندخل المستشفى متخفيين مع أي حالة كأننا داخلين زيارة، من هناك هنتصرف وناخد أنبوبة تنفس أكسجين، يونس هيجي ياخدك من المستشفى كأنك كنت محجوز فعلًا هناك، وهياخد الأنبوبة، يدفنها في الحفرة الأول بحيث متبانش في الفيديو اللي هيصوره، بعدين هيصور وهو بيدفنك، وهتتنفس من خلال الأنبوبة، وبعد أقل من ساعة أنا هاجي وأخرجك.

بدا الرجل مترددًا، كان يرفع كتفيه ويمط شفتيه وكأنّه غير مقتنع تمام الاقتناع، ولكن لا اعتراض طالما ليس هناك بديلٌ، فأومأ موافقًا.

***

الغردقة

كنت أجلس في سيارة سارة ولم تجف بدلتي بَعدُ، كانت في عجلةٍ من أمرها، أفكارها غامضة متخبطة لا أفهم منها شيئًا، ولا مفر من إصرارها، هي لا تعرف أن بقايا اللحم في منزلي خارج الثلاجة قد يتعفن، ولكن لحسن الحظ وصلنا سريعًا، أشارت إلى مقهى قريب:

- خليك هنا عشر دقايق وجيالك.

وكانت عشر دقائق، دخلت فيهم بيت قريب، وخرجت منه تحمل حقيبة لاب توب كبيرة، جلست ملتصقة بي بطريقة موتِّرة، وأخرجت من اللاب صورًا متعددة لكروت تُشبِه أوراق اللعب، لكل عنوان صورة ووصف وبيانات، جعلت تقلب بينهم سريعًا بضغطة زر، وتسأل:

- عارف إيه دول؟

تأمَّلتهم قليلًا، لم أفهم شيئًا، أشرت برأسي أن لا، فجعلت تشرح بصوتٍ خفيضٍ:

- سنة ٩٥ في واحد اسمه ستيف جاكسون اخترع لعبة ورق، سمَّاها illuminati card game مجموعة كروت بتلعب بيها واللي يفوز هو اللي يسيطر على العالم، في اللعبة طبعًا، بس اللي مش عادي هو الكلام والصور اللي موجودين في الكروت دي، اللعبة توقعت أحداث كتير جدًّا حصلت، وأحداث لسه هتحصل، وفضحت مؤامرات ومنظمات سرية، في كارت اسمه terrorist nuke..

وجعلت تقلِّب بين الصور حتى ظهر الكارت، وكان به رسمة برجي التجارة ينفجران، صورة تشبه كثيرًا ما حدث في الحقيقة، ولكنّي لم أفهم لماذا تخبرني

بذلك، أنا لست مهتم بنظرية المؤامرة، وما علاقة ذلك بإن كان عندي قدرة على استقراء الأفكار، ولكنّي قررت أن أسمعها للآخر احترامًا، كما أن طريقة كلامها كانت مشوقة..

- الكارت ده بيصور بالظبط اللي حصل في ١١ سبتمبر، أفتكر إن اللعبة دي اتعملت سنة ٩٥، ومن بعد اللحظة دي واللعبة اتشهرت جدًّا، واتحظرت فترة، وبدأت الناس تركز معاها وتحلل اللي موجود في الكروت، كروت بتصور تفجير البنتاجون، ونشر المثلية، والتحكم في الثروات، ونشر الإرهاب..

- أيوه إيه علاقة ده كلّه بي؟!

قاطعتها بهذا السؤال، فأضافت على الفور، وبحماسٍ شديدٍ:

- من بين كل الكروت دي بقى، في كارت ناس كتير مركزتش معاه، مطلعش عليه نظريات ولا تفسيرات، رغم إنه واحد من أهم كروت اللعبة، وهو الكارت ده.

وكانت صورة لكارت مكتوب عليه Dolphins ويحمل صورة دولفين في الماء يحمل بفمه صدرية فتاة، بينما الفتاة تخفي صدرها بذراعها، وبالذراع الأخرى تشير إليه وكأنها تتوسل أن لا يفضحها، وعلى وجه الدولفين ابتسامة خبيثة بعين نصف

منغلقة، وأردفت:

- قولي إيه الكارت ده بقى؟

- إيه الكارت ده بقى؟

- أقولك.. من أكتر من عشر سنين، قبل ما الإنترنت ينتشر بشكلٍ كبيرٍ، كان في برنامج تلفزيوني مشهور، استضاف واحدًا اسمه عنان القاضي، الراجل ده طلع قال كلام غريب جدًّا، أنا قلبت الدنيا عن الحلقة دي بعد كده ولكنها اتمحت من الوجود، حتى الراجل ده اختفى ومظهرش بعد كده أبدًا، بس في أدلة كتير بتثبت إنه كان صح في كل كلمة قالها، كان بيقول إن...

تجلّت في عقلي أفكارها، مثلما لم يحدث من قبل، تبرز، تبزغ كالشمس وتنبلج من بين مقلتيها، وكأنهما أصبحتا شاشتي عرض، فجعلت أشاهد الحلقة من خلال ذاكرتها، تلفاز قديم، مربع صغير، صورة مشوشة لبرنامج حواري قديم، ديكور عادي لمذيع وضيف على كرسيين متجاورين، لم يكن الصوت والصورة واضحين بما يكفي، ولكنِّي سمعت تقريبًا كلَّ كلمة، قال الضيف:

- بعد الحرب العالمية الثانية أصبح في جماعة معينة هي المسيطرة على موازين القوى في العالم، والجماعة دي زي ما هي سريَّة، كان لازم يكون ليها

جيش سري، قوي كفاية إنه يضمن بقاءها وسيطرتها على باقي الدول لأطول وقت ممكن، جيش الجندي الواحد منُّه بألف راجل، مضمون ولاؤهم، وعندهم قدرة خارقة على قراءة الأفكار، ومن هنا ظهرت جماعات الدولفين، ست جُزر مسؤولة عن ست مناطق كبرى..

قاطع المذيع وأضاف:

- ومنهم طبعًا الجزيرة المسؤولة عن عمليات الشرق الأوسط؟

- طبعًا، وأنا كنت واحد من المتدربين فيها، كنا دارسين جغرافيته وسياسته ولهجاته كويس جدًّا، شاركت معاهم في عمليات كتير، بس مع الوقت اكتشفت حقايق صادمة جدًّا، معلومات خلتني لازم انشق عنهم حتى لو مقابل ده حياتي..

قال المذيع:

- واحدة واحدة بس، يعني إنت كنت بتقول إن جنود الدولفين دول عندهم قدرة على قراءة الأفكار!

- أكيد، إحنا مش أول جماعة تتأسس بالشكل ده، ومش ظاهرة غريبة عن البشرية، ولكنها ظاهرة من الأفضل إنها تكون سرية، إنت مش هتحب تعيش كتير مع حد بيقرا أفكارك، لكن الأنظمة السياسية

ممكن تستفيد جدًّا من حاجة زي كده، دوَل كتير حاولت استغلال أصحاب القدرات الخاصة، روسيا، أمريكا، واليابان طبعًا، اليابان من أول وأهم الدول اللي عملت ده.

وأضاف المذيع:

- أنا أعرف إن في جامعة ديوك في الولايات المتحدة أنشأوا أول مختبر للبارا سيكولوچي سنة ٣٤ وكان قائم عليه علماء نفس واجتماع كبار ومعروفين، وبعد كده ظهر عشرات الجمعيات والمختبرات في كل أنحاء العالم، ولكن بعد فترة أصبحت نتائج المختبرات دي سرية أو غير معلنة، أعتقد إن أكيد الأسباب استراتيجية وعسكرية.

وقال عنان القاضي:

- لا لا لا.. كل ده لا يقارن بمنظمة الدولفين، لأنهم قدروا من خلال عملية اسمها شيفرة الدولفين أنهم يصنعوا جنود عندهم ولاء ودرجة كبيرة من الاحترافية، والقدرة على التخاطر وقراءة الأفكار.

أضاف المذيع:

- وإشمعنى اختاروا اسم الدولفين؟ يعني اللي اعرفه أن الدولفين صديق للإنسان!

- ما هنا الفكرة، هما بيعتبروا إنهم أصدقاء

للبشرية، موجودين لاستقرارها وتخليصها من الحروب، المشكلة إنهم بيضمنوا القوة لجهة واحدة بس، الدولفين كان أفضل رمز ليهم، لأن الدولفين معروف عنه الذكاء الشديد، والحرص، لأنه بينام بعين مفتوحة وعين مقفولة، والأهم من كل ده إن الدلافين بتتواصل مع بعض بطريقة أشبه بالتخاطر وقراءة الأفكار، عن طريق موجات بيعملها مخ الدولفين ويستقبلها.

- وكانوا بيجندوكم إزاي يا عنان؟

- بُص في البداية بياخدوا أطفال وشباب من كل أنحاء الوطن العربي عمرهم أقل من ١٥ سنة، مالهمش أهل وظروفهم صعبة أو اتحبسوا في قضايا معينة، علشان يضمنوا إن مفيش ليهم ملجأ تاني غيرهم، بيقعدوا في الجزيرة مش أقل من ١٥ سنة تانية، طبيعة خلابة وأكل وفواكه وملاعب كأنهم في جنة، ولكن كل المتدربين على الجزيرة لابسين أقنعة مينفعش حتّى يخلعوها، لحد ما بيعملولهم شيفرة الدولفين، ودي العملية اللي بتطلع منها قارئ أفكار، فيها بيتزرعلهم جهاز جوه دماغهم، ولكن العملية دي هي الكارثة الكبرى، لأن إنت حرفيًا بتدخلها إنسان وتطلع منها إنسان تاني، ضحاياها كتير، وقصتها كبيرة وفي غاية الوحشية..

قاطعه المذيع من جديد:

- بما أن قصتها كبيرة ومهمة، عايزينك تأجلها شوية وتحكيلي الأول مهماتكم كانت شكلها إيه؟

- تجسس، تهديدات، نمسك فضايح على ناس، اغتيالات لشخصيات مهمة وكأنها حوادث انتحار.

- تقدر تقولي أسامي؟

- طبعًا، كتير، وأسامي كبيرة، زي الكاتب المصري الكبير جمال حمدان، والدكتور سمير نجيب، والدكتور نبيل القليني، وساعدنا كمان في قفل التحقيق بحادثة رحلة مصر للطيران رقم ٩٩٠، ودي من المهمات اللي أنا شاركت فيها بشكل شخصي وقضايا تانية كتير.

في تلك اللحظة بدا وجه المذيع شاحبًا جدًّا، وقال:

- طيب بما إنك كنت واحد من جنودهم، هل ده يعني إن إنت دلوقتي قادر على قراءة أفكاري؟

- طبعًا الموضوع أصعب بعد ما خلعت الجهاز، ولكن أفكارك بتقول إن.. المخرج بيقولك اطلع فاصل بسرعة؟

أنهى الجملة بابتسامة واثقة، وأضاف المذيع بعد انشداه وصمت قليل:

- تابعونا بعد الفاصل هنعرف أكتر عن قصة

جماعة الدولفين وأسرار الجزيرة، مين مسؤول عنها، وإيه هي شيفرة الدولفين، وليه الأستاذ قرر إنه يسيبهم ويتكلم بعد كل الوقت ده، ابقوا معنا.»

- ولكن الحلقة مكملتش.

هكذا أضافت سارة بحزن وإحباط، هزَّت رأسها وأضافت:

- جت إعلانات، ومن بعدها جت النشرة، وبعدين القناة قفلت، إنت عارف طبعًا إن زمان القنوات كانت بتقفل بالليل، وتاني يوم البرنامج ده متزاعش تاني، دورت على الحلقة دي مكانش ليها أي وجود، حتّى المذيع نفسه مظهرش تاني بعد كده، ولكني فضلت فاكره، زمان كان في مقالات كتير بتتكلم عن التخاطر، وكتَّاب كبار اتكلموا كتير في الموضوع ده، منهم مثلًا أنيس منصور في كتب زي القوى الخفية وأرواح وأشباح وغيرهم، ولكن مؤخرًا الكلام في الموضوع ده شِبه انعدم، والحالات دي قلت جدًّا، ولكني مهتمة جدًّا بالموضوع ده، وكنت متأكدة إني هقابل حد كده، لحد ما لاقيتك.

عينها متّقدة، يكاد الحماس ينطلق منها، كانت مبتسمة، وبدت جميلة جدًّا، قلت لها:

- انتي مختلفة عن أي حد عرفته، بحس إن أنا مرتاح وأنا بكلمك..

بدا على وجهها الخجل، نظرت إلى أسفل، حيث كانت كفّي وبها الدبلة اللعينة، وسألت:

- إنت متجوز مش كده؟

لم أعرف ماذا أقول، لا أجيد الكذب ولا أحبه، ووجدت نفسي أجيبها:

- يعني.. مش بالمعنى الحرفي.

- إزاي يعني؟

سألت بفضول، وأجبت على سرعة البديهة:

- إحنا شِبه منفصلين، هي خلاص مبقتش زي الأول، صدقيني مراتي لو قولتلها دلوقتي إني بحب واحدة تانية مش هتقول حاجة أصلًا.

- هي مش بتحبك؟

- أرجوكي يا سارة بلاش كلام كتير في الموضوع ده.

فأومأت موافقة في خجل، ثم استأذنت لتدخل الحمَّام، حينها نظرت إلى الدبلة الفضيَّة في كفي، وتذكرت مشاهد متقطّعة لريماس والدماء، وجعلت أفكِّر في ذلك المدعو عنان القاضي وما قاله، وهل هو على قيد الحياة، وما هي المعلومات التي يخفيها، حتّى جاءت سارة، وخرجنا من المكان،

وذهبت إلى البيت أكمل أعمال التنظيف التي تركتها خلفي.

***

على طريق الساحل الشمالي، وفي منطقة تنفرش بالرمال والكثبان، اقتحم يونس بسيارته العالية نعومة الرمال واستقرارها، بعد أن تجاوَز الكمين بأعجوبة، وجعلت السيارة تهتز على تعرجات الرمال وكأنها قارب صغير يبختره الموج، كان وجه الجنرال على هاتف معلَّق أمام الزجاج في فيديو اتصال مباشر، يقول تعليماته ليونس، بينما يونس يختفي وراء الكثبان ويتأكد أن لا أحد يراه من على الطريق البعيد:

- حاوِل تخلي الكاميرا متبعدش عن الحفرة يا يونس.

- أوامرك يا جنرال.

وكان الجنرال في غاية الحزن، عينه تذرف دمعًا، ثم جعل ينتحب ويقول:

- الله يرحمك يا عنان، الله يرحمك يا حبيبي، هصوم عليك سبع أيام، سبع أيام يا حبيبي..

وأثناء ذلك ينزل يونس من السيارة، يضع الهاتف قائمًا بين ممسحة الزجاج، والزجاج، فتسمح

الكاميرا برؤية واضحة للمساحة الشاسعة من الرمال، يأخذ يونس الجاروف من شنطة السيارة الواسعة بجوار جسد الرائد عنان المكوم في حقيبة موتى، ثم وقف وفي يده الجاروف في مكان مناسب أمام الكاميرا، وقال في السمَّاعة التي يضعها:

- هنا كويس؟

وأجاب الجنرال:

- يمين سِنَّة.. تمام.

ثم جعل يحفر حتّى تصبَّب عرقًا، يمسح جبهته بذراعه كل بضع دقائق، وتنغمس قدماه تدريجيًّا نحو الأسفل، حتّى كانت حفرة مناسبة، فذهب ليحمل الجسد، وكان الرائد عنان يتحرك معه ويساعده حتّى ينزل من الشنطة، ثم وقف يونس بقدمه على حافة السيارة وجعل يقفز ويحركها صعودًا وهبوطًا حتّى تزحلق الهاتف على ظهر زجاج السيارة، وأضحت الكاميرا تنظر نحو السماء حيث الشمس الساطعة، قال الجنرال سريعًا:

- التليفون اتزحلق يا يونس.

- ثواني هعدله.

أجاب يونس، ثم حمل أنبوب الأكسجين وانطلق مسرعًا، وضعه في الحفرة وغطَّاه بالرمال، ثم حملَ

الرائد عنان على كتفه ووضعه إلى جوار الحفرة، ثم أخذ الهاتف وعدله، وفتح حقيبة الموتى حيث وجه الرائد عنان الشاحب الخامد بعدما وضعت له لي لي ما يحتاج من مساحيق التجميل، ثم شرع يصوره له بكاميرا الهاتف، بدا وجه الجنرال مطمئنًا منتشيًا، ولكن قبل أن يعيد يونس الهاتف مكانه قال الجنرال:

- استنى كده يا يونس.

حينها جفَّ الدم من عروق يونس، نظر إلى الشاشة وقال بوجه مطمئن:

- أوامرك يا جنرال.

- صورلي كده وشه تاني.

فقرّب يونس الكاميرا من وجهه، وكان الرائد عنان يكتم أنفاسه، تكاد تسمع دقَّات قلبه، وكفّه ترتجف حتّى ضغط عليها يونس بحذائه إشارة أن يهدأ قليلًا، ومرّت أكثر من دقيقة على هذا الحال.. حتّى أصدر الجنرال صوتًا عاليًا بغتة وكأنه يريد أن يفزعه:

- بوو.. ههه.. ماشي.. ادفن.

تنفس يونس الصعداء، ودفع الرائد عنان بقدمه فسقط في الحفرة على ظهره، وضع يونس الهاتف

كما كان معلَّقا أمام زجاج السيارة، ذلك ولم تحِد الكاميرا عن الحفرة أبدًا، ولكنَّها أيضًا لم تعد تلتقط بالتحديد ما يحدث أسفل القبر، عاد يونس إلى مكانه وحمل الجاروف، والرائد عنان لم يتحرك من مكانه قيد أنملة، لأن يونس لم يعطِه الإشارة بعد، وكانت الإشارة أن يخبط له خبطتين على الأنبوب، ثم فعل يونس ذلك حتّى ظهر جزء بسيط من الأنبوب، ولكن رغم الإشارة فإن الرائد عنان لم يتحرك أبدًا، بل بدا وجهه شاحبًا أكثر مما كان، واتسعت حدقتاه بصورة ملحوظة، وبدا وكأنه ينظر إلى نقطة محددة في السماء، والتفت يونس خلفه، فإذا تفزعه وتُسقِط قلبه ثلاثُ طلقات متتالية يضربها ذلك المدعو أوركا، صاحب الوشم رقم ١١٧ وقد ظهر خلفه وكأنه جاء من العدم، ثلاث طلقات تستقر كلٌّ منها بلا استثناء في جسد الرائد عنان، ليودع الحياة في قبرة دون معاناة أو مقاومة، فقط ثلاث انتفاضات قصيرة لثلاث طلقات مدوية، يتدفق الدم كالينبوع فيطفح على صدره ويتفشّى بهدوء شديد، ويقول أوركا بابتسامة جذلة:

- زيادة تأكيد.

Screenshot saved

ثم شرع يونس يلقي الرمال بسرعة فوق جسد الرائد عنان، مشدوهًا لا ينبس ببنت شفة، وقد راود

الغضب والدمع وجهه المحتدم.

***

الغردقة

دخلتُ البيت بجسد متهالك، ألقيتُ المفاتيح على الطاولة، وألقيت جسدي على الأريكة، حملت الريموت الذي وزن أطنانًا وبَعُدَ أميالًا، وفتحت التلفاز، جعلت أقلِّب من بين القنوات، كالعادة كل شيء ممل، إلى أن توقفت عند شيء شدَّ انتباهي، انتفضت من مكاني عندما وجدت ذلك الإعلامي المصري الشهير يتحدث عن جريمة قتل بالغردقة، وأنهم عثروا صباح اليوم على ذراع وقدم لفتاة مقطوعين ومعبئين في كيس وسط القمامة، ابتلعتُ ريقي ووقفت مشدوهًا لفترة.. لقد اكتشفوا الأمر سريعًا.. ثم جعل يصرخ ويسترسل كعادته ليملأ وقت الحلقة، عن الرحمة والأخلاق والسياحة التي انضربت و... و... و...

وبدا أنَّه لن يقول شيئًا مفيدًا، من المستحيل أن يتعرفوا على هوية الضحية من مجرد ذراع وقدم، ولكن لا بُدَّ أنني سأواجه صعوبة عند نفي الدفعات القادمة، قررت أن أجعل وجهها طعامًا للأسماك في البحر حتَّى لا يعثر عليه أحد ويكتشف هويتها، وشعرتُ أن القصة قد بدأت تزداد إثارة، ونهضت

متجهًا نحو الثلاجة أتناول شربة ماء باردة، ثم أستعد للنزول لألقي الدفعة الثانية، ولكن أبهتني وأعادني مصدومًا ما سمعته للتو على لسان هذا المذيع اللعين، كيف اكتشفوا معلومة دقيقة مثل التي قالها؟! كذّبت أذني ولم أصدقها إلا بعد أن سمعته يعيد ما قاله مرَّة أخرى:

- وأثبتت تحريات الشرطة أن الضحية لبنت اسمها (ريماس) ومرتبطة بشخص اسمه (محمود).

***

وكان يونس قد سوّى الأرض وانتهى من الدفن، فجاء إليه أوركا وهو يحمل هاتف ويعرضه على يونس، وفيه الجنرال يقول:

- اسمعوا انتوا الاتنين، المهمة الجاية في مصر زي ما إحنا، عندنا مصيبة في ميناء بورسعيد، سفينة كبيرة كانت معبأة حاويات، حاوية منهم تبعنا، حاوية صغيرة مش كبيرة، كل مرة بنعديها بطريقتنا، المرة دي وقفت، ظابط جمارك دماغه ناشفة اسمه أيمن شحاتة، بعد ما الحاوية نزلت من المركب وعدِّت من الأشعة شك فيها وصمم يفتحها، الحاوية حاليًا محجوزة في المخازن في صالة الجمارك، مطلوب تطلَّعوها من المينا، ارتاحوا النهارده، بس الكلام ده يخلص بكرة بالكتير، لأن بكرة أجازة

والشحنة هتترحل من الميناء بعد بكرة الصبح، هبعتلكم البيانات والمكان اللي تودوها فيه، وابدأوا حضَّروا نفسكم.

واختفى يونس من أمام الكاميرا، اتجه صوب السيارة وفي يده الكوريك متدليًا يرسم على الرمال خطَّ سيرِه وفي قلبه حزن شديد، حتَّى إذا وقف خلف السيارة، هناك لم يستطع أن يخفي حزنه، حتّى تسرّب الدمع من مقلتيه، قليلًا حتَّى كفكف دمعه واستجمع قواه، ثم فتح الشنطة ووضع الكوريك وأغلقها، لكنَّه لمحَ ما جعله يفتحها مرة أخرى سريعًا، كان كتابًا غريبًا قديمًا ومهترئًا، منزوع الغلاف أصفر الأوراق، وبداخله ورقة بيضاء دامية، كانت الورقة التي تركها يونس للرائد عنان في الفندق، فعرف أن الكتاب منه، أثناء ذلك كان الجنرال بعيدًا يسأل أوركا عن الرائد عنان:

- كان عايش؟

- تقريبًا كده.

- طيب بعد ما تخرج انت ويونس الحاوية، أقتله.

ولم يكد يونس يحمل الكتاب الغريب ويتصفحه حتّى لاحظ المدعو أوركا يقترب، فأخفى الكتاب، وتظاهر بأنَّ شيئًا لم يكن.

الفصل الخامس

لم يكن هذا الكتاب ضخمًا أبدًا. مرقومٌ إلى حوالي ٢٠٠ صفحة من الورق الأصفر الذي يحمل رائحة الورق العتيق، مليء بالرسومات التوضيحية، وخطوط بالأقلام الجاف والرصاص أسفل الكلمات وحولها، كأن من حمله قد ذاكره ألف مرَّةٍ ومرَّةٍ، أطراف الصفحات مبرومة حول بعضها كلفافاتِ تبغٍ، وعدد كبير جدًّا من الصفحات مقطوعة ومفقودة، وما بقي من الصفحات المقطوعة يظهر في وسط الكتاب وكأنَّ مَن قطعها كان في عجالة، فقُطِعَت بميلٍ بسيطٍ، باليد وليس بمقص أو آلة حادة، وليس على الكتاب رقم طبعة ولا دار نشر ولا مؤلف، ولكن في الصفحة الأخيرة لاحظ يونس إمضاء «القاهرة ١٩٥٠» وأسفلها بخط اليد وبحبر أسود ثقيل مكتوب «الكتاب محظور من النشر» وأما اسم الكاتب فلم يُذكَر أبدًا. وفي الصفحة الأولى بعد الغلاف المقطوع، وإلى جوار بقع الصدأ البنيَّة التي تركتها دبابيس الكتاب، مكتوب بخطٍّ انسيابيٍّ عريض «كتاب أسرار السـ...» ولكن الكلمة لم تكتمل بسبب قطعٍ في طرف الصفحة، جعل يونس فور أن وصل مسكنه في الفندق يتأمل هذا الكتاب، حتَّى إذا جاءت لي لي، طرقت ففتح لها، والحزن

على وجهها بعد أن وصلَها منه رسالة بخبر موت الرائد عنان، عانقته طويلًا، وسألته بإشارة منها «ما قصة هذا الكتاب؟» ولكنَّه أشار لها أن تلتزم الصمت، فقالت:

- طيب أنا هروح أنام، محتاج حاجة؟

هز رأسه، وفي صمتٍ أشار لها أن تذهب، وهو مشغولٌ بأمرِ هذا الكتاب الذي لم يتركه لحظة، أخرج الورقة الدامية التي احتواها الكتاب، لا بُدَّ أن الرائد عنان قد ترك هذا الكتاب في السيارة بقصدٍ، فقضى يونس الليل كلَّه بلا غفلة يقرأ صفحات الكتاب، وقد احتوت أولى صفحاته على تنويه غريب..

***

«تنويه..

إن هذا الكتاب يحتوي على أسرار بالغة الخطر والأهمية، وإنه محظور على العامة، ومحظور على ذوي الأنفس الضعيفة؛ لأن داخل هذا الكتاب مفاتيح وأسرار من شأنها أن تقلب موازين القوى في العالم، وتنهض من أجله ممالك، وتسقط ممالك، وأرواح تزهق، وحروب تضرم، لذلك فهو كتاب لا يقرأه إلا المختارون، المنتخبون من قِبَل الأقدم والأكبر سنًّا منهم، ويحظر أن تستخدم تعاليم

ومفاتيح هذا الكتاب لأغراض شخصية، مهما بلغت الأسباب والدوافع، وأن لا يستخدم لهجوم أو اعتداء قَطّ، ولكنه للدفاع، وردّ المظالم، وردع الأعداء، وصد البلاء، ومَن قرأ هذا الكتاب وتعاليمه فقد كرَّسَ حياته لتلك العقيدة، وعليه أن يقسم بذلك أمام من اختاره، ومَن يخالف ذلك فسوف يتحرك ضده من ملك مفاتيح هذا الكتاب أجمعين، للدفاع عن أسراره وتعاليمه، وأن هذا الكتاب لا يُورَّث، ولا يُنقَل، ولا يُلقَّن، ولا يُبَاع، ولا يُساوَم، ولو كان الثمن دماء ومذابح، بل فقط يُحرَق عند الانتهاء منه، أو يتم تسليمه إلى مختار آخر.

الفصل الأول

- البداية -

في ماضٍ سحيقٍ، وعصورٍ مظلمة، لم يكن الإنسان فيها قد اكتشف النار بعد لتؤنس ليلَهُ، وتحمي أرضَهُ، وتطهو فتاته، كان إذا بكى الطفل أضحى هدفًا ميسورًا للضواري، وعلى البشر أن يراقبوا خطوهم، وأن يحبسوا أنفاسهم في كل ليلة، لم تكن البيئة آمنةً للكلام والأحاديث، كما أن اللغة لم تكن بهذا الازدهار في ذلك الماضي السحيق، بضع تعبيرات بسيطة مصحوبة شرطًا بالإشارات الجسدية، لا تعطي لغة فعَّالة في غياهب الظلمات والأوقات الحالكة، وعلى الأناسي أن يعثروا على بديل فعَّال، وإلا هدَّدَهم الفناء، وفي منطقة غير محددة قُربَ المحيط الهادئ، اكتسب فصيل من البشر الأوائل هبةً نفيسةً مكَّنتهم من النجاة، وهي هبة التخاطر، فكان إذا تراءى لأحدهم الخطر أرسلَ إشارات استقبلها قومه فانتبهوا، وانتشر هذا الفصيل المتفوق في شتَّى أرجاء الأرض، خاصة البلدان المجاورة لتلك البقعة مثل الصين واليابان وأستراليا والهنود الحمر في أمريكا الشمالية وغيرهم، فكل تلك المناطق كانت متصلةً ببعضها في العصر الجليدي عندما تجمَّد المحيط، ثم تعاقبت الدهور،

وتغيرت الأحوال، طوَّر الإنسان الأدوات، واكتشف النار، وكوَّن المجتمعات، فأضحى مفترِسًا بعد أن كان فريسة، ولم يعد يهَابُ الضواري، وطوَّر لغة كلامية أكثر عمقًا، تعبيرات دقيقة تصف كل شيء حوله، بل إنها تصف كل شيء في خياله عن طريق الكلام، وتُكسِبه القدرة على التشبيه والتصوير والتحوير، لم تَعُد تجتذبه لغة التخاطر البدائية، فتلك مليئة بالعيوب، تحتاج إلى تركيز، وقدرٍ كبيرٍ من الطاقة، لا تصيب دائمًا، وعادة لا تنقل حوارًا طويلًا، والأهم أنَّه لا يمكن الكذب والمجاملة من خلالها؛ لذلك لم يعد الإنسان المتحضر يحتاجها، حتَّى اختفت، والجزء المسؤول عنها في المخ ضَمُرَ وفقدَ وظيفته، لكنَّها تجلَّت بين البشر بصفة متباينة، مثل حكماء الصين وزعماء الهند، وظهرت في الصلة القوية بين الأم وأبنائها، وبعض الأصدقاء المقربين، وفي التواصل بين الأحباء، كما أنَّها بقيت حاضرة بشكل واضح في بعض المناطق، مثل قبائل الأبوريجينز، سكان أستراليا الأصليون.

تعاقبت السنون، وفي نفس المنطقة تقريبًا، حول المحيط الهادئ، وتحديدًا في جُزر اليابان، وسط الطبيعة الخلابة والهدوء الساحر، منذ أكثر من ألف عامٍ، كان هناك اهتمام بالغ بالتأمل والاسترخاء، وألعاب العقل والذكاء، وفنون القتال المختلفة، مما

ساعد بشكلٍ كبيرٍ على تنشيط جزء التخاطر الخامل في غياهب العقل، وكان الهدف هو التنبؤ بحركات العدو وصدها، واشتهرت في اليابان جماعة تقاتل ولا تهزم، حتَّى وهم يقاتلون بعصابة تغطي أعينهم، وسمُّوا أنفسهم «المونونوفو»، ولكن نشبت بينهم العديد من المعارك والمذابح، فمن يقرأ أفكار البشر بغير حكمة يكرههم ويعاديهم، وليس كل الناس مؤهلة لامتلاك قدرة مثل تلك القدرة، دون أن تغويه المطامع والمكاسب، ولكن قادة تلك الجماعة وضعوا حدًّا لهذه المذابح والحروب الأهلية، تعافوا من جديد، وسنُّوا قوانينَ صارمة ومنهجًا وعقيدة كاملة، سُمِّيت بعقيدة البوشيدو، طريق المحارب، وكانت مقسَّمة إلى تعاليم سرية، وتعاليم عامة، وتأثرت بتعاليم من الديانات الأخرى المجاورة، مثل البوذية والكونفوشيوسية، تعرضت تعاليم البوشيدو إلى جانبين من حياة المحاربين؛ الروح المعنوية القتالية له، وكذلك الحالة البدنية والمهارات القتالية، ثم مع الوقت تطورت أساليبهم، وتوحَّد زِيُّهم، وحفظوا السر، وكرَّسوا حياتهم لخدمة البشر دون أيِّ مصلحة شخصية، وتغيَّر اسمهم إلى جنود الساموراي، حماة الوطن الذين لا يُهزَمون.

يقضي محارب الساموراي فترة البوشيدو خمسة عشر عامًا من حياته حتّى يتقن فنون القتال جنبًا

إلى جنب مع مصادر الفضائل الثمانية، سداد الرأي، الشجاعة، الخير، التهذيب، الصدق، الشرف، الولاء، وضبط النفس.. بعد هذه الفترة يتلو جندي الساموراي القَسَم، وعند ذلك ينتقل إلى مرحلة الأوسوشيتو، التي يتعلم فيها فنون التخاطر والاستقراء، وبعد ذلك يصبح جندي ساموراي مؤهَّلًا للقتال وتدريب أفراد جدد، وجندي الساموراي هو بنفسه الذي يختار تلاميذه، ولكن ليس من السهل أبدًا أن يقع الاختيار على أي شخصٍ ليتعلم فنون التخاطر والاستقراء».

انتابت الدهشة ملامح يونس عندما قرأ تلك الكلمات، أنزل الكتاب وجعل يحدِّق في الفراغ، شبيه هذا الكلام بما تدرَّب عليه في جزيرة الدولفين، عقيدة الدولفين تُشبه كثيرًا عقيدة الساموراي، التضحية من أجل خدمة البشرية، لقد قضي خمسة عشر عامًا على تلك الجزيرة قبل أن يتعلم قراءة الأفكار، خمسة عشر عامًا لم يرَ فيها حتَّى وجهه، يتعلم فنون القتال واستخدام الأسلحة وعقيدة الدولفين، ولكن في جزيرة الدولفين لم يكن هناك تدريب لاكتساب قدرة قراءة الأفكار، بل كانت عملية جراحية تدعى شيفرة الدولفين، بعدها يتلقى بضعة تدريبات للتحكم في القدرة وتطويرها فقط، جذب الكتاب يونس كثيرًا، حتَّى إنّه لمّا تركه لم

يستطع مقاومة فتحه من جديدٍ، نظر إلى صفحة الكتاب الأولى المقطوعة المهترئة، والعنوان غير المكتمل «كتاب أسرار السـ..» وتوقع أنَّها ربما أسرار الساموراي، ولكنَّه لم يكن ليتوقع أبدًا أن أسرار لجماعة نشأت للقتال مثل الساموراي قد تكون بتلك الأهمية، أخذ يونس شربة ماء ثم شرع يقلِّب في صفحات الكتاب مرَّةً أخرى، ولكن طبقة سميكة من الصفحات كانت مقطوعة، فتح يونس الفهرس فكان المفقود فصلًا كاملًا، مكوَّنًا من اثني عشر عنوانًا جانبيًا، في أكثر من مئة صفحة، واسمه «قواعد الاستقراء الاثنا عشر» وجاء ذِكرُها في الفهرس على النحو التالي:

مقدمة الفصل الثاني - ١٤

(١) ظروف الخلوة - ١٨

(٢) طريق التأمل - ٢٢

(٣) الصلاة الأولى - ٢٧

(٤) الصلاة الثانية - ٣٥

(٥) ترويض الجسد - ٣٨

(٦) قتل قلب الثعلب - ٤٣

(٧) التمرينات العقلية - ٦٠

(٨) الصوم والنظام الغذائي - ٩٤

(٩) إئتلاف العيون - ٩٩

(١٠) انسجام الشخوص - ١٠٥

(١١) كشف الخواطر - ١١٢

(١٢) حظر الأفكار - ١٢٣

كان ذلك الفصل هو الأطول، وهو الوحيد المقطوع من الكتاب، ثم كان من بعده فصل ثالث مليء بالرسومات التوضيحية، تحت عنوان «درع الساموراي» وأغلب كلام هذا الفصل كان عن خوذة حظر الأفكار وأنواعها، الخوذة المخروطية، والخوذة ذات القرون الطويلة، والخوذة الهرمية. لم يهتم يونس كثيرًا بهذا الفصل المليء بالأسهم والرسوم وأسامي المواد، ولكنَّه أيقن أن هذا الكتاب لا يحتوي إلا على التعاليم السرية والجزء المحظور من تاريخ الساموري، فلم يتعرض الكتاب إلى جزء الأسلحة أو طريقة القتال أو أيٍّ من الأشياء المشهورة عنهم، وبقي أمامه عددٌ لا بأس به من الصفحات، ورغم تأخُّر الوقت، إلا أنَّه لم يستطع أبدًا أن ينام ويترك من يده هذا الكتاب المثير للفضول، كانت الفصول التالية كلامها كثيفًا، وجاء الفصل الرابع تحت عنوان غريب «غلطة يوشيميتسو الكبرى» مما أثار فضوله أكثر، فقلب الصفحة وشرع يقرأ بلا هوادة..

الفصل الرابع

- غلطة يوشيميتسو الكبرى -

«يعتبر يوشيميتسو أحد أقوى جنود الساموراي وأكثرهم مهارة وإخلاصًا، طوَّر الكثير من فنون القتال، خاصة القتال بالسيف طويل المقبض، فقد طوَّر من تصميمه وكان أمهر من حَملَه، ولكن ذلك لم يمنعه من ارتكاب الخطأ الذي أدَّى به إلى الانتحار، ومحو اسمه من سجلات الشرف في كتب الساموراي، ولكن ظلَّ اسمه خالدًا في السر بينهم، مربوطًا بالعار والعزة في نفس الوقت، كان يوشيميتشو أول من انتحر من جنود الساموراي عن طريق قَطْعِ أحشائه لأنه ارتكب ذنبًا، ومن بعده اتخذ هذا الإجراء طقسًا مقدسًا مشهورٌ به جنود الساموراي، وسمي هذا الطقس باسم السيبوكو، وكان يفعله كلُّ مَن ارتكب ذنبًا أو تلقى هزيمة، كان يوشيميتشو مُحبًا للتأمُّل والترحال، وذات يوم أخذَ قاربًا وخرج في رحلة طويلة، مرَّ ببلدان وممالك، وتعلَّم لغات وعادات، حتَّى إذا وصل يومًا إلى أرض يحكمها مجموعة قبائل، فقضى بينهم بضع ليال قبل أن ينوي الارتحال إلى أرض أخرى، فإذا به يشهد واقعة اغتيال قائد تلك القبيلة وكبيرها، وكان لهذا القائد طفل صغير أحق بأن يتولَّى القيادة بعد

أبيه لولا صغر سنِّه، ولكن هذا الطفل وأمَّه أصبحا يُعَاملان باضطهاد وذُلٍّ من قِبَل الحُكَّام الجدد، الذين كان لهم يد وحيلة في مقتل قائدهم، وشعر يوشيميتسو بالشفقة على هذا الطفل، وأراد له إذا بلغ أشدَّه أن يسترد حقَّه ويستعيد مُلكه، فقرَّر أن يعلِّمَه القليل من فنون الساموراي التي اكتسبها، وكان ذلك الصبي خير تلميذ لمعلمه، كان مطيعًا خلوقًا ومهذبًا، سريع الفَهم والتطبيق، كان اسمه تيموجين، ولمّا انتهى يوشيميتسو من تعليمه تركَ القبيلة ورحل، ولكن تيموجين لم يبقَ الطفل البريء المسالم لوقت طويل، فقدرتُه على استقراء الأفكار أكسبته عداوةً ضد البشر. في البدء قتل أعز أصدقائه، وكان يدعى جاموخا، ربما رأى في عقله أنَّه اشتهى زوجته، لم يتمكن تيموجين من السيطرة على دوافعه، ولكنَّه كاد يتمكن من السيطرة على العالم، فلم يكتفِ تيموجين من استعادة مُلك قبيلته فحسب، بل سيطر على كل القبائل المجاورة بسهولة بالغة، كان قائدًا لا يُهزَم، فمَنْ له القدرة على استقراء الأفكار بمهارة لا يمكن خيانته، يمكنه أن يتنبأ جيدًا بنقط ضعف أعدائه، ويعرف عاداتهم وخباياهم، يعرف من هُم أعوانه، ومن ينتوون خيانته، وأطلقَ تيموجين على نفسه اسم جنكيز خان، أي ملك ملوك العالم، وكان بالفعل أكثر

الملوك توسعًا في التاريخ، أكثر حتَّى من الإسكندر الأكبر، رغم أن الإسكندر تتلمَذَ على يد فلاسفة وقادة مخضرمين في القتال والحكمة، وفي مملكة متحضرة تمتلك العلم والجيوش، ولكن جنكيز خان صنع إمبراطورية من قبائل لا تعرف التحضر، أسقطت في طريقها ممالك وإمبراطوريات عتية، من المحيط الهادئ حتَّى أوروبا، تلك مساحة شاسعة، وإنجاز مبهر بالنسبة لرجلٍ جاء من الريف، بثَّ الرعب في قلوب الأعداء، عرفَ مما يخافون وادعاه على نفسه، أوحى للعرب أنهم قوم يأجوج ومأجوج، وأنَّه لعنة صبت عليهم من الإله، ولم تشهد إمبراطوريته تدهورًا إلا بعد وفاته بسنين طويلة، سفك الدماء، وأضرم المذابح، ولكن ثمة منطقة صغيرة وقريبة لم يهاجمها أبدًا، وهي جُزر اليابان في قلب المحيط الهادئ، رغم جيوشه الجائحة، ورغم شهرة تلك المنطقة بالذهب، لكنَّه يعرف جيدًا أن جنودها مثله لا يهزمون.

الفصل الخامس

(حرب التتار والساموراي -

بداية عصر جديد)

عند مطلع هذا الفصل تناوَل يونس الورقة الدامية ووضعها كعلامة يحدِّد بها الصفحة، وأخذ استراحة قصيرة يحضِّر كوبًا مركَّزًا من القهوة، لأنَّه قرر أن يقضي الليل كلَّه مع ذلك الكتاب الغريب.

***

الغردقة

- وأثبتت التحريات أن الضحية اسمها (ريماس) ومرتبطة بشخص اسمه (محمود).

صُعِقت، ضربتني شاحنة وأطاحت بي من فوق جبل وسقطت فوقي لمّا سمعت تلك الكلمات على التلفاز، وتنبَّأت سريعًا كيف عرفوا اسمها واسمي قبل أن يكشف هو عن ذلك، عندها فقط اكتشفت مدى غبائي، وبكفي سددت فمي الذي فُغِر عن لا إرادة منِّي، وتأمَّلت الدبلة التي كنت أرتديها، ثم خلعتها ونظرت داخلها، حيث تجلَّى اسمي واسمها لامعًا في الضوء، وجاء صوته يقول:

- فواضح أن القتل مكانش بدافع السرقة، لأن

القاتل مأخدش باله حتَّى من الدبلة اللي كانت لابساها الضحية ريماس الله يرحمها..

وجعل يتكهَّن أنَّها ربما اغتُصبت حتَّى ماتت، أو... أو... أو... ويسترسل ويتوقّع ليفتعل موضوعًا يشغل الرأي العام، ويزيد البلَّة طينًا، فجعلت من دبلتي قذيفة ضربتها بكل غلٍّ في وسط الشاشة، ليتمدد الشرخ كالبرق الأسود، مع صوت تشويش مزعج. حاولت أن أتمالك أعصابي، وجعلت أتحدث مع ما بقي منها:

- البحر.. مفيش حاجة هتخفي ملامحك غير البحر.

وخرجت من الغرفة جاهزًا ببدلة وربطة عنق أنيقة، ومعي شنطة سفر متوسطة، ووضعت بها ثلاثة أكياس من الستة المتبقية، وتأكدتُ أن الرأس بينهم، ثم صففت شعري ونزلت، قررت أن أبتعد كثيرًا، وأوقفت أول تاكسي أقابله:

- الجونة لو سمحت.

وجلسنا أنا وريما في المقعد الخلفي، فتحت لها الباب وأدخلتها بنفسي، وكان السائق الأبله يتأمَّلني عبر المرآة كل دقيقتين، يفكِّر كم يطلب منِّي حسب مظهري، ولكنَّه اللعين أقلقني وهدَّد من سكينتي، وأزاد الطين بلَّة أن ظهرت لجنة تفتيش

على الطريق، فأخرجت منديلًا وجعلت أمسح ما تصبب من عرق، اضطربت أنفاسي ولم تهدأ، بينما أوقف الضابط السائق وسأله عن الرخص، رمقني ثم خبَّط على الزجاج بجواري ففتحته، سأل عن البطاقة فأخرجتها، ثم سألني:

- رايح فين يا محمود؟

كنت متوترًا، وأجاب السائق الغبي وهو يحاول أن يكسب وِدَّ الضابط:

- ده رايح الجونة يا باشا.

وأردف الضابط بلطف وقد لاحظ اضطرابي:

- هتعمل إيه في الجونة؟

وقد ظنَّ في نفسه أنني أعمل هناك، ولكنِّي لم أعرف كيف أرتجل عملًا فقلت له:

- رايح أصيف.

وأجاب على سرعة البديهة:

- رايح تصيف بالبدلة؟

لم أتوقَّع هذا السؤال الذي خطر على باله، حاولت أن أخفي توتري، وأجبته:

- آه.. عادي.

- عادي طبعًا.. عندك مانع نفتح الشنطة؟

حينها اختلجت، اضطرب قلبي، وارتجف فكِّي وعجز عن التعبير، أومأت برأسي وأنا أكتم أنفاسي، وأشار الضابط إلى أحد العساكر أن يخرج الشنطة التي حملت أجزاء ريماس بداخلها، وضعها العسكري على ظهر السيارة فارتجت، وشرع يفتحها، فنزلتُ لهم بغتة وأوقفته مناديًا:

- ثواني يا افندم.

تأملني بعجب، وأضفت بثقة:

- مش هينفع تفتح الشنطة.

- ليه إن شاء الله؟

قال الضابط وهو يقترب منِّي، وقد وضع يده على طبنجته، وأجبته:

- أنا ظابط أمن دولة في مأمورية سرية، معييش أي ورق يثبت الكلام ده دلوقتي لأنه ممكن يضر بالمأمورية جدًّا، لكن اللي باعتني حد انت تعرفه كويس، وعارف أنك موجود هنا دلوقتي، مش انت الـ.. ظابط حسين منصور الأسيوطي؟

- مظبوط.. ومين بقى اللي باعتك المأمورية السرية دي؟!

- سيادة اللواء رمضان الجيار.

عقد الضابط حاجبيه وهو يميل رأسه قليلًا لليمين،

رفع يده من على الطبنجة وقال متعجبًا:

- كنت متوقّع إنَّك هتقول الاسم ده، ثواني طيب أتصل بيه أتأكد.

- لأ...

قاطعته بغتة، وكان الضابط قد أخرج الهاتف من جيبه، وأردفت:

- هتلاقيه مشغول، واتصال حضرتك ممكن يعمل مشكلة، كمان أنا متأخر جدًّا، ولكن هو كان سايب لحضرتك معايا أمارة...

- أمارة؟؟

- بأمارة آخر مرة قعدت معاه في المكتب لوحدكم، وطلبت نسكافيه، واتكلمتوا في موضوع الترقية، واتكلمتوا في موضوع مراتك.

قُلتُ ذلك بثقة بالغة، وقال:

- هو حكالك كمان على موضوع مراتي؟!

- لأ.. هو بس قالي أقولك كده.. أقدر امشي دلوقتي يا فندم؟

رمقني الضابط بفضول، ثم أشار بكفِّه متبسمًا وقال:

- اتفضل يا فندم.

ركبت السيارة، وأمر العساكر بوضع الشنطة مكانها، ولمّا أغلقت الباب جاءني عند النافذة ولا زال هاتفه بكفه، قال:

- إحنا آسفين لتعطيل حضرتك يا افندم، بالسلامة إن شاء الله.

ولكنِّي لم أجِبه، ولم أركز معه أصلًا، كنت أصب تركيزي مع ذلك الغبي الذي كان يُدخِل الشنطة فأسقطها على الأرض وأسقط قلبي معها، كم خشيت أن يفتحها أو يقطعها ويفسد كل شيء فعلته، ولكنَّها مرَّت بسلام، وأغلق الباب، فأشرت للسائق أن ينطلق، وبدا أن الضابط قد التقط بهاتفه صورة لأرقام السيارة وهي تغرب، ولكنِّي لم أهتم.

***

الفصل الخامس

(حرب التتار والساموراي -

بداية عصر جديد)

بعد وفاة جنكيز خان ببضعة أعوام أصرَّ حفيدُه قوبلاي خان على غزو اليابان، بالرغم من أن جدَّه قد حذَّر من بسالة جنودها ذوي القدرات القتالية الخارقة، بيد أنها لم تمتلك مكانة اقتصادية أو عسكرية كبيرة، مجرد مجموعة جُزُر في المحيط، ولكن علاوة على ذلك فإن اليابان في ذلك الوقت تفككت إلى مقاطعات وجزر، تدهور حالُها سياسيًّا، وكانت سُلطة الإمبراطور فيها سُلطةً روحية فقط، وعلى العكس كانت إمبراطورية المغول العظمى في أوج قوتها، في ذلك الحين أرسل قوبلاي خان رسالة لليابان، كعادة من عادات المغول قبل أي غزو، ولكن الغريب أنَّها لم تكن رسالة تهديد ووعيد وأمرًا بالاستسلام، كما عرف عن المغول من رسائل مهينة وقاسية أرسلوها لإمبراطوريات أخرى أقوى وأعتى؛ فبالرغم من ضخامة حجم وجيوش إمبراطورية المغول التي لا تقارن أبدًا بجزر اليابان، إلا أنهم طلبوا الصداقة والتعاون، وجاء من نَص الرسالة «لو لم يكن هناك علاقات صداقة بيننا، فمن يهوى

اللجوء إلى الحرب».

رفضت اليابان الاستسلام بدون ردٍّ قاطعٍ، وترددت جحافل المغول كثيرًا في الهجوم، حدثت أكثر من مفاوضة، وفي النهاية طفح كيل الإمبراطور المغولي، وأرسل عدد ألف سفينة لغزو جزر اليابان، لم تذكر كتب التاريخ عدد الجنود، ولكن تخيَّل حجم الجند والعتاد الذي يمكن أن تحمله ألف سفينة مغولية!

تنقسم اليابان إلى ثلاث جُزُر رئيسية، وبسبب ظروفها المتدهورة والانقسامات الداخلية لم يكن هناك جيش واحد ليدافع عنها كاملة، بل لكل جزيرة جيشها الخاص من جنود الساموراي من الأهالي.

وكان أول لقاء بين جيوش التتار والساموراي على جزيرة يقال لها ((تسوشيما))، حيث تصدى للألف سفينة بما عليهم عدد ٨٠ جندي ساموراي فقط وتلاميذهم، ضد الألف سفينة من جيش المغول المهول، هجمات وكمائن من قِبَل الطرفين، ولكن هجمات جنود الساموراي كانت فعَّالةً جدًّا، أزهقوا الكثير من الأرواح، وأغرقوا الكثير من السفن، جندي الساموراي لا يُضاهَى في المواجهة المباشرة، ولو واحد ضد عشرة، بينما كان أهالي اليابان يسكن الرعبُ قلوبَهم، خوفًا من تقدُّم جحافل سفَّاكي

الدماء عليهم، الحرب دائرة، وصليل السيوف يملأ عنان السماء، هناك حيث الغيوم الملبَّدة والأمطار، أو كما يسميها أهل اليابان، الكاميكازي، الرياح المقدسة، يعبدونها، ويتوسلون إليها أن تساعدهم على انتصارٍ غَيرِ معقولٍ، ولكن هذه المرة تنعكس الآية، وتأتي السفن بما لا تشتهيه الرياح، فكانت سفن التتار محمَّلة بذخائر من هذا السلاح المتطور الذي نشأ في أرض الصين، وفي اللحظة الحاسمة استخدم التتار ورقتهم الرابحة، (البارود).. لأول مرة في التاريخ يخرج هذا السلاح الأسطوري في حرب خارج الصين، نار تطير، وانفجارات مدوية تتخلل صفوفهم، مدمرة وصاخبة، برق ورعد، وكأن إله الرياح قد انقلب عليهم، وكأن التتار كما زعموا عقاب من الآلهة، انقلبت الموازين، وتقهقر الساموراي، فقدوا ثباتهم وتركيزهم وقدرتهم، فقُتِلوا بلا رحمة، ولم يبقَ من الجنود الثمانين أحد، وسقطت المدينة، وتجاوز التتار الجزيرة، وانتقلوا إلى الجزيرة التالية.

((جزيرة أيكي)) جزيرة صغيرة جدًّا، ورغم ذلك لم يمدها الحاكم بأي دعمٍ، وخرج جنود الساموراي القلة فيها للحرب وحدهم ضد جحافل غاشمة، وقد جاءهم خبر البارود واستعدوا له، ولكن المغول استخدموا حيلة أخرى، فقد عرفوا صغر

حجم الجزيرة وقلة جندها، فقسَّموا أنفسهم إلى فرقتين، فرقة تدخل في مواجهة مباشرة، والفرقة الثانية تتسلل من جهة أخرى إلى قصر المدينة وتستولي عليه، وبعد حرب طالت انتصر فيها جند الساموراي على الفرقة التي واجهتهم، رجعوا ليجدوا أن المدينة قد سقطت في أيدي العدو، وأن الحاكم قد انتحر هو وعائلته خوفًا من الأَسْر، وكان المغول يستقبلون غريمهم على أبواب المدينة في مشهدٍ دميمٍ لا يتحمله بشر، حيث ربطوا أيدي الأَسْرَى ببعضهم بحبالٍ خيطت عبر فتحات شقَّت داخل أكفافهم، ووضعوهم على أبواب المدينة برؤوس منكسة، فأزهقت عزيمة ما بقي من جندِ الساموراي، وأدركوا أن القتال لا معنى له بعد أن سقطت المدينة، فانتحروا جميعًا خوفًا من العار، وتأثُّرًا بأبيهم يوشيميتسو، الذي انتحر لما ذيع خبر جنكيز خان وجرائمه منذ عقودٍ، وانتقلت جيوش المغول إلى الجزيرة الرئيسية لليابان.. ((خليج هاكاتا)) كانت خطوط الساموراي تشكل حاجزَ دفاعٍ على كامل الجزيرة الرئيسية لليابان، وأرسلت قوات المغول سهما للإعلان عن بدء المعركة كتقليد شائع عندهم، فردَّتْ عليهم جنود الساموراي بسهمٍ مثله، ولكن أسهم الساموراي مقارنة بأسهم المغول كأنها مقارنة بين قُطٍّ وفهد في الحجم والسرعة والقوة،

تعالت ضحكات جحافل المغول كثيرًا مستهزئين بما أرسله الساموراي من شوكة مهترئة، وبلغت أصوات القهقهة سماء اليابان، دقت طبول الحرب، وهجم جنود المغول، سلاح فرسان، وسلاح مشاة، ودروع، وقوة بدنية، وسهام مسمومة، وقنابل بارود ناسفة، وطبول تدق الرعب في القلوب، على أساسها تتحرك الجنود المغولية ذات القلوب الغاشمة بنظام شديد، والتي تفوقهم عددًا وعتدًا، هربت خيول الساموراي، ولكن لم تهدأ سيوفُهم، ساعات طويلة من القتال الباسل، بلا تقهقر ولا هوان، تناثرت الدماء، وتساقطت الأسلحة والأبدان، وتزايدت الأمطار، ولكن أصواتها لم تُغطِّ صليل السيوف، وصياح الجنود، ورائحة الطين المبتل لم تُبدِّد رائحة الدماء، وبغتة هدأ كل شيء، وحدث ما لم يمكن توقُّعه، شرع جنود التتار في الانسحاب، وقد أيقنوا بعد خسائر بالغة لم يشهدها تاريخهم أن جند الساموراي لا يهزمون، ذوي القدرة على التنبؤ بحركة الخصم وأفكاره، فكانت تلك الحرب أول شاهد على هزيمة في صفوف المغول في سابق تاريخهم، الحرب التي وضعت حداً للتوسع المغولي في أوج قوتهم، وليس في مرحلة تدهورهم، وذُكرت هذه الغزوات في العديد من الأعمال الخيالية والأساطير، ولكن قلّة الذين أدركوا السبب الحقيقي وراء الهزيمة،

ولكن بعد هذه الحرب بدأ عصر الانهيار في تاريخ الساموراي، فقد تدهور حالهم، ومات أغلب قادتهم، أصبحت الحركة سرية ومحظورة، وقدرة الاستقراء مقتصرة فقط على كبار القادة منهم، حتَّى إنّها بدأت تندثر مع الوقت، وأصبحت شِبه أسطورة على ورق مهترئ، ولم يتم إحياؤها من جديد إلا في العصر الحديث إبان الحرب العالمية.»

***

الغردقة

ابتعت صنَّارةً وعلبة سجائر وقبعةَ صيدٍ، واتجهت نحو مَرسى اليخوت، وكان على رصيف المرسى رجل نوبي ذو ابتسامة لطيفة، استوقفني وهو يسأل:

- أوامرك يا ريس؟

- مش إنت.. عم إسماعيل؟

- أيوه.

- وفي يخوت من دول معاك مفاتيحها مش كده؟

- بتسأل ليه عدم اللامؤاخذة؟

- اليخت بتاع عبد الرحمن باشا اللي هناك ده؟

- مظبوط.

ثم أخرجت سيجارة وأعطيتُها له، تناولها بتردُّد،

وقلت:

- طيب هو باعِتْنِي ليك بيني وبينك، بيقولك هات مفتاح اليخت ساعتين هدخل أصطاد وأرجعهولك.

- وهو مبلغنيش ليه يا باشا؟ ما أنا كنت لسه معاه على التليفون.

- أيوه قالي، بأمارة ما كلمك عن الرحلة اللي عايزة اليخت يوم الاتنين، وأقولك أمارة تانية، بأمارة مدام جيجي اللي بتيجي معاه هنا ومحدش يعرف الموضوع غيرك، أصله صاحبي أوي، بس هو مقالكش عنِّي في التليفون علشان كانت جنبه مراته، وإنت عارفها، وهي بيني وبينك مبتحبنيش، خد دول علشانك.

وأعطيته ورقة بمئتي جنيه، تناولها بسعادة بالغة وهو يقول:

- وهي مراته دي بتحب حد يا باشا، ثواني وهجيبلك المفتاح.

واتخذت طريقي مبحرًا، بعيدًا جدًّا عن الشاطئ، باتجاه الغردقة، وبالتحديد نحو جُزر الجفتون، مطمئنًا وابتسامتي ترافق وجهي، ولم أكن على عِلمٍ بما حدث منذ قليل.

***

- سيادة اللواء رمضان الجيار؟... إزي حضرتك يا افندم، معاك الضابط حسين منصور... كنت عايز أسألك عن حاجة كده، هو في حد تبعك عدَّى على طريق الجونة من شوية معاه بطاقة باسم محمود صلاح... إزاي يا افندم ده سايبلي أسرار محدش يعرفها غير أنا وإنت... معقول... لا خلاص هحكيلك بعدين، عمومًا متقلقش إحنا صوَّرناه، هبعتلك صورته، وصوَّرنا كمان أرقام التاكسي اللي كان راكبه وهنجيبه حالًا.. هبقى أبلغك بكل حاجة، مع السلامة يا فندم..

أنهى الضابط المكالمة مع دوّي صوت باب السيارة الذي أغلقه خلفه، ووجَّه كلامه بعصبية بالغة إلى أفراد الكمين:

- هاتولي تاكسي الغردقة اللي طلع ده بأي طريقة.

***

الفصل السادس

- الحرب العالمية -

التاريخ لا يخفي أسراره للأبد، بقي سِرُّ الساموراي في لوحٍ محفوظٍ في مكان خفي بأرض اليابان، حتَّى إذا مرَّت أجيال، وجاء يوم ونفض التراب عنه، في منتصف القرن التاسع عشر، يوم لم تكن اليابان فيه لها وجود ضمن ركب الدول المتقدمة، ولكنَّ شيئًا سيحدث، هذا السر القديم سينكشف، ويغير التاريخ مرَّة أخرى، في عهد الإمبراطور موتسوهيتو، تدخُل اليابان ما يسمى بعصر ميجي «الحكومة المستنيرة» وتتحول في غضون سنواتٍ قليلة إلى إحدى أقوى الدول الاستعمارية في العالم، قادة الجيش سوف يتغيرون، ويدخل قادة بسياسة لم يتبعها أحد من قبل، فتبدأ بالتخلُّص من قيود المعاهدات المجحفة التي فرضتَها عليها الدول التي كانت تستعمرها، ولم تكتفِ بذلك، بل تنتقل سريعًا إلى السيطرة على الدول المجاورة، والطرق البحرية المفضية إلى موانئها، وجعلت اليابان الصغيرة تمتد وتنفرش على الخريطة بسرعة مثل بقعة حبر ثقيلة، قامت بغزو كوريا ومنشوريا، وطردت منهما القوات الصينية، ثم دخلت في حرب مع القوات الروسية العظمى على مناطقهم الاستعمارية وأوقعت بهم

الهزيمة، وانتهزت اليابان فرصة اندلاع الحرب العالمية الأولى فأعلنت الحرب على ألمانيا، وسلبت منها موانئ ومناطق كثيرة، فرضت مطالبها على الصين وأجبرتها على الموافقة تحت ضغط القوة، لم يستطع أحد إيقاف الوحش الياباني الهائج الذي جعل يتغلب على قوى عظمى لم يجرؤ أحد على مجابهتها منذ عقود طويلة، وبدأت الولايات المتحدة تستشعر خطرًا عظيمًا يهددها من جزيرة صغيرة في المحيط الهادئ، لم تتوقف اليابان عن حملات التوسع، حتَّى إذا جاءت الحرب العالمية الثانية، ودخلت اليابان الحرب ضد الحلفاء، وفوجئ العالم بهجوم لها على القاعدة الأمريكية في بيرل هاربر، وتلك كانت البداية، فما لبثت أن اجتاحت في زمنٍ قصيرٍ الفليبين، وإندونيسيا، والهند الصينية الفرنسية، وملايو، وسنغافورة، وبورما، وجعل العالم يتحدث عن قوة اليابان وقادتها الذين لا يُهزَمون، ولكنَّ حركة الاستخبارات والتجسس في ذلك الوقت كانت في أوج تطوُّرِها، باستخدام وسائل الاتصالات وأجهزة التجسس، استطاعت الولايات المتحدة معرفةَ سِرِّ قوة اليابان، إنها مراكز تدريب سرية جدًّا، تقع في هيروشيما وناجازاكي، تُكسِب القادة القدرة على التواصل من خلال قراءة الأفكار، وهكذا صدر قرار بإلقاء القنبلتين الذريتين على المدينتين، في

مواعيد محددة عقد بها اجتماعات سرية في مركزيّ التدريب، وهذا يفسر لماذا قررت أمريكا استخدام القنبلتين ليس ضدَّ معسكر جندٍ أو ساحةِ حربٍ، بل ضد مدنيين في مدينتين مأهولتين بالسكان غير رئيسيتين في اليابان، لقد كانت ضربة أنهت إرث الساموراي الثمين من جديد، ولكنَّ الهوس بقضية قراءة الأفكار لم ينتهِ؛ ذيع الخبر، فأصيبت الدول بهوس البحث عن الجندي الخارق، خاصة بين أمريكا وروسيا خلال الحرب الباردة، لم تتوقف التجارب على البشر لعقود بعد انتهاء الحرب، منافسة بين روسيا وأمريكا على من يتوصل أولًا إلى شيفرة الرجل الخارق القادر على قراءة الأفكار، وضحايا عدة جرَّاء تجارب دموية كثيرة تجريها الدولتان، بعضهم تم الإعلان عنه والبعض ظلَّ سريًّا للغاية، ولم يتوصل أحدهم أبدًا إلى ذلك السر حتَّى اليوم، ولكن هناك تقارير عن جماعة سرية توصلت إلى طريقة ما، ليست لإكساب الفرد القدرة على قراءة الأفكار، ولكن لتطوير تلك القدرة لمن كانت لديهم بالفعل بصورة طفيفة، وذلك من خلال عملية تدعى شيفرة الدولفين، وسمِّيَت تلك الجماعة بمنظمة الدولفين، ولها أكثر من مقر سرِّيٍّ في جزر صغيرة في مناطق عدة من المياه الإقليمية للبحار والمحيطات، لا زالت المعلومات عن تلك الجماعة

سرية جدًّا، فليس معلومًا من أين يأتي تمويلها وإلى أي جهة سياسية تنتمي، بل ليس مؤكد إن كانت شيفرة الدولفين تلك حقيقية أم محض خيال أو مجرد إشاعات، ولكن لعلَّ الأيام القادمة تكشف كل شيء.

القاهرة ١٩٥٠

الفصل السادس

وكانت شمس ما بعد الظهيرة قد زارت المكان، متسلِّلة على رسلها من نافذة الفندق الواسعة، حتَّى بلغت وجه يونس النائم، والكتاب الساقط من كفِّه، ذلك عندما طرق الباب عدَّة مرَّاتٍ، وفي تصاعُد شديد، فقام من نومه فزعًا، وقبل أن يفتح تأكَّد من أنَّه قد خبَّأ الكتاب، ثم هندم نفسه وذهب ليجيب، وكانت لي لي هي الطارقة، التي قالت فور أن فتح:

- كل ده نوم، بقالي ساعة على الباب.

- آه.. كنت سهران شوية، في إيه؟

- في إيه! مش إنت اللي كلمتني بالليل وقُلتلي أجيلك ضروري أول ما أصحى، ده أنا صحيت وأخذت شاور و...

- ششش..

أسكتها مشيرًا بإبهامه، ثم أخرج من دولابه ورقة مطبقة، أعطاها لها في حذرٍ وقال:

- وحشتيني.

لم تُجب، فتحتها فور أن تناولتها، وجعلت تقرأ، وكان بها كلام كثير، بدأت عيناها تتسعان رويدًا، ثم جعل الدمع يحقن في مقلتيها حتَّى إذا انسدل منهما

دمعتان تنزلقان بتمهل على خديها، وبدأت تهز رأسها نفيًا وهي تحملق في الورقة، ثم قالت:

- لا.. لا يا يونس بلاش.

فوضع كفَّه على فمها بغتة لتصمت، وجعلت تبكي بصوت مكتوم، خارت قواها، وانثنت ركبتاها حتَّى جثت على الأرض، طبقت على الورقة بين أصابعها بقوة وقالت وهي تنحب:

- أنا مليش غيرك يا يونس، بابا وماما جابوني على كَبَر، كنت وحيدتهم، الدلوعة اللي مبيترفضلهاش طلب، وفجأة ماتوا واحد ورا التاني، من بعدهم حبيت واحد بجنون، إديتله كل حاجة، وفي الآخر نصب عليا، سرقني وهرب. حاولت أعيش لوحدي وفي حالي، بس الناس مبتسيبش حد في حاله، طلَّعوا عليا إني ماشية على حل شعري، لحد ما سبتلهم البلد كلها، إنت الوحيد حسِّستِني بالأمان، ولو جرالك حاجة أنا هموت.

- أنا مش هسيبك تموتي.

قال يونس وهو يكفكف دمعها، ثم أقامها وعانقها طويلًا، حتى إذا طرق الباب، فجزع كلاهما، ونظر يونس من عين الباب فكان ذلك اللعين أوركا يبتسم أمام العين بأنياب صفراء، أسرع يونس وخلعَ قميصه، ثم خلع لها حذاءها وشرابها والشال الذي

على كتفها، ثم مسح وجهها من الدمع، خبَّأ الورقة ووضع لها الطاقية، وأجلسها على السرير ثم فتح الباب مواربًا، وقال أوركا:

- إيه.. هتفضل مقضيها هنا ولا إيه، مش عندنا مشوار النهارده، ولا ناسي؟

- طيب اسبقني تحت على الرسيبشن وأنا هدخل الحمَّام أتشطف وأنزلك.

وكان أوركا يسرق نظرات إلى الداخل، فلمح لي لي تجلس بعيدًا، ولمّا أنهى يونس كلامه قال:

- طب ما أستناك معاها هنا وإنت خد راحتك جوه.

ابتسم يونس والغضب يملأ ملامحه. أخذ نفسًا طويلًا وفتح الباب على رحبه، ثم أمسك برأس أوركا بغتة، وضرب بوجهه الحائط عدَّة مرّات حتَّى نزفت أنفه:

- المرة الجاية لو جبت سيرتها هكسرهالك خالص.

تحسس الدماء النازفة على شفتيه، ثم بصق على الأرض ورحل دون كلمة.

ثم قال يونس لها بعد أن أوصد الباب خلفه:

- لي لي، البسي وانزلي دلوقتي حالًا، معندناش وقت نضيعه.

***

الغردقة

وحدي تمامًا في هذا اليخت الملكي، لون المياه فيروزية كأنَّها سائل مضيء، بالقُرب من جزر الجفتون، للشمس مع النسيم شعور بالدفء والبرد يجتمعان، مثل صوت البحر يرافق أصوات النورس، التي تملأ أجنحتها السماء، حتَّى كادت تغطي قرصَ الشمس، تنغمس طيور النورس في مياه البحر الممتدة على مرمى البصر كأنَّها تأخذ من بركتها، ثم تعود لتحلِّق نحو الشمس، ترفرف النورس عادة بالقرب من السواحل، فكان البحَّارة حول العالم يتَّخذون منها علامة تدل على اقترابهم، فيستبشرون بها خيرًا، والغردقة وحدها يسكنها نحو ٥٠٪ من طيور النورس حول العالم، هنا بجزر الجفتون، ولو كنت مثلهم، عندي أجنحة وقدرة على أن أطوف العالم، لن أتردد في جعل الغردقة موطني الآمن الهادئ، ومنهم أدلل على عبارتي، إن كانت مصر جنَّة على الأرض، فالغردقة هي الفردوس.

حملت حقيبة السفر فوق ذراعيَّ كما تُحمَل العروس يوم الزفاف، وألقيتها برفقٍ لتنغمر في الماء العميق، لم أكن أعلم أن الشرطة تبحث عنِّي في كل مكان. أخرجت صنَّارتي وألقيتها بعيدًا في البحر، وضعت

القبعة فوق رأسي واستلقيت في هدوء.

أخرجت هاتفي، وفتحت مواقع التواصل، الشيء الذي لم أفعله منذ شهور، جعلت أبحث في فيسبوك وتويتر عن أشخاص يتحدثون عن تلك المواضيع (التخاطر - قراءة الأفكار - الباراسيكولوجي - التليباثي) وبعد بحث طويل وجدت منشورات ومجموعات عدة، أغلبها استفسارات ووجهات نظر ومقالات، ومعلومات عن مكتب يدعى جوزيف بانكس راين لدراسة علوم الباراسيكولوجي وتاريخه، ومكتب OPI في سان فرانسيسكو للتحقيق الميداني في مجال الباراسيكولوجي والخوارق، والذي يضم عدد من المحققين الرسميين وجامعي المعلومات في هذا المجال من مختلف أنحاء العالم، مثل الكاتبة المصرية شيرين هنائي، وحاولت التواصل مع كل من أمكن لي التواصل معه، ثم دخلت وكتبت نفس المنشور في أماكن عدة «أنا أمتلك قدرة على التخاطر أو قراءة الأفكار ولا أستطيع التحكم بها، هل هناك تفسير لذلك؟» وجعلت أنتظر الرد، وأخرجت أول سيجارة أشربها في حياتي، شعرت باحتراق في حلقي، وسعلت مرات عدة، ولكنَّ هناك ذلك الشعور، وكأنَّ الدم ينبض في عقلي، وكأن دخان السيجارة تجلَّى فيها فملأها كالبالون، فأصبحت خفيفة يهزها الريح ويداعبها،

وسرحت مع بضعة دلافين تقفز وتتسابق، تلعب فوق الماء وتحتها، يقال إن ليس للدلافين أيَّ غرضٍ من تلك الحركات البهلوانية، ليس بهدف التزاوج أو الصيد أو التدريب، بل فقط يفعلون ذلك من أجل المرح، ولمَّا عرفت هذا أصبحت أشعر بسعادة أكبر إذا رأيتهم، ولكن شيئًا غريبًا أخرجني من حالة الجذل، مجموعة قوارب للشرطة مترافقة تقترب من بعيدٍ، مسرعة تقصد اليخت الذي كنت عليه، كيف عثروا عليَّ بتلك السرعة، وفي ثوانٍ قليلة كانت قواتهم تملأ اليخت، وتبحث عنِّي في كل زاوية فيه، ولكنِّي بالطبع لم أكن على متنه، كنت أسبح تحت البحر مثل الدلافين، متجهًا نحو الشاطئ، كانت مسافة طويلة، وفي جنح الليل كنت قد وصلت، ألهث، وأشعر بالظمأ والجوع والبرد، بجنيهات مبتلة اشتريت زجاجة ماء، شربتها كلَّها واتّجهت إلى البيت، لأكتشف الكارثة الحقيقية؛ كانت قوات الشرطة تحاصر البيت.

***

الطريق الساحلي الدولي

كانت السيَّارة اللاند كروزر تقطع الطريق نحو بورسعيد بسرعة فائقة، تطل أشعة شمس المغيب الباهتة عبر النافذة اليسرى، فتسقط أشعتها على

كفَّي أوركا الغليظتين المتشبثتين بطارة القيادة، ويلمع الوشم على كفِّه الأيسر ١١٧، وعلى ذراعه الأيمن Orca، تأمّل يونس الجالس بجواره هذا الوشم.

- ليه أوركا؟

سأل مقاطعًا الصمت، فأجاب أوركا بفخرٍ وكأنه سؤال يحب أن يجيب عليه:

- نوع قاتل من الدلافين، أكبر وأشرس نوع فيهم، لدرجة أن الناس بتقول عليه حوت، مش دولفين، بيسموه الحوت القاتل، أو السفَّاح، أنت بتعرف تسوق اللودر بتاع الحاويات ده؟

- لأ.. ليه؟

- علشان نرفع الحاوية على العربية.

- الحاوية دي اتفتحت بالليل متأخر، وكان المفروض تترحل النهارده الصبح بس النهارده أجازة، مفتكرش إنهم نزلوها من العربية أصلًا، إحنا هندخل المينا من البحر، كده أقرب للحاويات، الميناء مرشق كاميرات، فمش عايزين نتلقط بدري، واللي هنقابله هنتعامل معاه بهدوء، علشان لو قلبت حرب ممكن منعرفش نطلع بيها، حظنا إن الحاوية صغيرة فهنعرف نسيطر على العربية، لما نيجي نطلع أنا

هسوق وإنت هتغطيني بسلاحك، معاك طلق كفاية؟

- خزنتين ١٥ والشنطة ورا فيها طَلْق كتير.

- تمام، لازم نتأكد إن مفيش حد جاي ورانا، الجراج اللي هنخبي فيه الحاوية قريب من الميناء وفي مكان هادي، هنسيب عربيتنا دي هناك، ونروح المينا من غيرها، ولما ناخد الحاوية هنوديها نفس الجراج، وناخد إحنا عربيتنا ونروَّح، بس كده.

- لا مش بس كده، أنا لسه عندي مهمات تانية، إنت اللي هتروح.

رمقه يونس، ثم لم يعره اهتمامًا، ألقى بعينه على الطريق، ولم يتحدث أحدٌ منهما حتَّى بلغا وجهتهما.

***

فردَ غراب الليل أجنحته القاتمة فوق بروج السماء، فأمسى البحر قاتمًا مدلهمًا، إلا من خط رفيع يعكس ما سقط من ضوء القمر البعيد، فتبدو المياه في هذا الخط فضيَّة متراقصة، بالقرب من أرصفة ميناء بورسعيد كان الماء ثقيل، تطفو عليه زيوت السفن فتجعلها تبدو -رغم المصابيح- أكثر سوادًا وعمقًا، وهناك من بين البواخر السوامق خرج يونس، على مرمى بصره أرصفة الميناء والحاويات المتناثرة كالأبراج، وكان يقف أسفل أحد الرافعات المتجاورة،

شاهقة الارتفاع تصل إلى عشرة طوابق، ترمي مخالبها العريضة باتجاه البحر فوق سفينة ضخمة معبَّأة بالحاويات، وعلى كل رافعة رقم تسلسُل وتحذير بخطٍّ عريضٍ «احذر سقوط الأعمال» ثم خرج من بعده أوركا على الرصيف، يلهث وظهره منحنيًا، تقطّر ثيابهما ويقول بأنفاس متهدجة:

- بقيت عويم ونفَسَك طويل، إنت مكنتش كده في الجزيرة، واحدة واحدة قطعت نفسي.

أشار يونس لأوركا أن يبقى ساكنًا، وقال بصوت خفيض:

- خليك واقف هنا متتحركش.

ثم تسلَّق الحاوية على سلالم حديدية حتَّى وصل إلى القمة، وجعل يراقب الميناء ويدرس المكان جيدًا، أين صالة الجمارك، وأقصر طريق آمن لها، أماكن الكاميرات، وأماكن تجمع رجال الأمن والعمال، ثم نزل سريعًا، حيث كان أوركا يجهِّز سلاحه، فقال يونس:

- اخفي ده دلوقتي، وامشي عادي علشان محدش يشك فينا.

- عرفت فين صالة الجمارك.

قال أوركا، لم يعتنِ حتَّى بخفض صوته، امتعض

يونس، وسبقه متسللًا دون إجابة، تبعه الآخر، حتَّى وصلا إلى قرب بوابة المخزن، وكان هناك رجل أمن عظيم البنية نائم على كرسي جوار البوابة وشخيره يملأ المكان، فأشار يونس لأوركا أن يبقى مختبئًا، ثم أخرج من حقيبته عصا البيسبول السوداء واقترب بخفة، كان بابًا حديديًّا له مصراعان عظيمان، واسعًا شاهقَ الارتفاع، مُغلَقًا بدون أصفاد، حاول يونس أن يدفع أحد المصراعين برفق، ولكنَّ الباب أحدث صفيرًا هائلًا مثل فيل هائجٍ، فقام رجل الأمن من مكانه يصرخ فزعًا بصوت مجلجل، ذعر منه يونس فرفعَ عصاه وضربه على رأسه مرتين حتَّى أجلسه مرَّة أخرى فاقدًا الوعي، وقال مازحًا:

- زي ما إنت، والله ما إنت قايم.

ثم أشار لأوركا أن يدخل، ولكن فجأة يدوي من كل مكان في الميناء صوتُ صفيرٍ هائلٌ ينبئ بحالة طوارئ، ذلك يعني أن كاميرات المراقبة قد التقطتهم.

***

الغردقة

- أستاذ محمود صلاح يعمل كده! لا حول ولا قوة إلا بالله، ده كان راجل طيب وفي حالة، محدش يتخيل أبدًا إنه يعمل حاجة زي كده، يقتل مراته

ويقطعها!! لا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول ذلك الجار عم فتحي، وهو يجلس مع أحد أفراد الشرطة على مقهى قريب، وحوله زبائن القهوة والعاملون فيها يستمعون لما يقول، كلٌّ يحوقل ويضرب كفًّا على كف، بينما كنت أقف مختبئًا في مدخل أحد البيوت القريبة، أتساءل كيف عرفوا بياناتي وبيتي بهذه السرعة، حين سمعت صوتًا ينادي باسمي فجأة.

- أستاذ محمود أهه.

فسقط قلبي، وكدت أموت رعبًا، لم أجرِ، بل تجمدت في مكاني منتظرًا مصيري المحتوم، حسبته يشير تجاهي، وكان يشير إلى التلفاز المعلَّق بالقهوة، الذي ظهرت صورتي فيه، لقد صوَّرَني الضابط اللعين عندما كنت بالتاكسي، كيف خدعني؟! لم أكتشف أنَّه صورني، ثم تذكرت كل شيء عندما أصبحت صورتي ملئ الشاشة، لقد التقطها لمَّا ركبت السيارة، وأمر العساكر بوضع الشنطة مكانها، لمَّا أغلقت الباب جاءني عند النافذة وكان هاتفه بكفه، وقد صوَّرني في تلك اللحظة، ولكنِّي لم أنتبه، كنت أصب تركيزي مع ذلك الغبي الذي كان يُدخِل الشنطة فأسقطها على الأرض وخشيت أن تنفتح، الآن عليَّ أن أختفي من

هذا المكان قبل أن يلحظني أحد، ولكن المشكلة الأكبر، إلى أين أذهب!

أخرجت الهاتف من جيبي، فوجدته مبللًا أتلفه ماء البحر، حينها لم أتمالك أعصابي، وجعلت أضرب به عرض الحائط حتَّى انثنى وانكسر، وفكَّرت أين يمكن أن أذهب، فلم يتجلَّ في ذهني سوى الدكتور أدهم، فقررت أن أزوره علَّه يساعدني، وخرجت متسللًا من المكان، واتخذت خطوات ثلاث في اتجاه الهروب، حينها سمعت صوتًا ينادي:

- يا أستاذ.. يا أستاذ.

أغمضت عيني، وشعرت كأنني أشاهد كل شيء من خلفي عبر نظرات الناس وأفكارهم، المنادي كان الضابط، ومن خلفه جمعٌ من المتأهبين لنظرتي التي ستقتل الشك في قلوبهم أو تعززه، كان الضابط يضع يدَه على طبنجته الكامنة في غمدها، وأمامي شاب يجهز دراجته البخارية للانطلاق، تسارعت ضربات قلبي، واتخذت قراري في أقلّ من ثانية، لن أستدير، سأهرب، استجمعت قواي، وفكرت فيما يجب أن أفعله، عليَّ أن أطرح هذا الشاب أرضًا، وأركب دراجته وأنطلق في لمح البصر..

***

ميناء بورسعيد

انطلقت صفارات الإنذار من كل حدب وصوب كأنها القيامة، وراح يونس يبحث عن السيارة الحاملة للحاوية، بينما أشار لأوركا أن يوصد باب المخزن ليكسبا بعض الوقت، عثر يونس على الشاحنة سريعًا، وقد ظهر من خلفه أحد أفراد الأمن يرفع طبنجة ويصوِّبها نحوه.

كانت إنذارات سيارات الشرطة قد بدأت تدوي بعيدًا خارج المخزن، فتسلق أوركا سطح حاوية فارغة في ركن بعيد، ثم قفز منها نحو إحدى نوافذ المخزن العالية ثم إلى سطح المخزن وأشهَرَ سلاحه.

حاول يونس أن يفتح باب الشاحنة فكان موصدًا، رفع عصاه محاولًا أن يكسر الزجاج، حينها شعر بحركة غريبة من خلفه، أغمض عينيه ثانية، وقبل أن يتكلم رجل الأمن صاحب الطبنجة، تحرَّك يونس بغتة من مكانه، ثم استدار سريعًا ملوحًا بعصا البيسبول، فأصاب الطبنجة من بين كفَّيه وأطاح بها نحو الزجاج الذي تحطم على الفور، وقد استدار يونس مرة أخرى فضرب رأس الرجل ضربة أسقطته على ركبتيه أولًا، ثم استوى ببطء على الأرض، فتح يونس باب السيارة، أخرج سيجارة ووضعها بفمه، وأمام كرسي القائد نزع سلكين من التابلوه، ومن الشرر الذي أنتجه تلامُس السلكين أشعل سيجارته،

ثم دارت السيارة فقام بربطهما معًا وهو ينفث دخانه.

كان أوركا من فوق المخزن يصوِّب نحو إطارات سيارات الشرطة الأربع المقبلة نحو المكان فيخرجها من مسارها، حتّى اصطدمت سيارتان، وثالثة سقطت في البحر من فوق الرصيف.

من أسفل قدميّ أوركا، ضربت الشاحنة التي يقودها يونس باب المخزن فحطمته وخرجت منه، قفز أوركا فوقها ثم انبطح، وجعل يضرب طلقات حتى خرجت الحاوية من باب الميناء غير متبوعة.

دقائق من القيادة بالسرعة القصوى حتَّى اقتربت السيارة من وِجهتها، قفز أوركا إلى المقعد الأمامي جوار يونس، يضحك بجذل ممتنًّا لانتهاء المهمة بنجاح، دخلت السيارة الجراج فأوقفها يونس وقال:

- انزل اقفل باب الجراج.

- انزل إنت.

أجاب أوركا، رمقه يونس بضيق شديد، ثم نزل دون كلام، ولما استدار كان أوركا خلفه، يصوب مسدسه نحوه.

- بتعمل إيه؟

قال يونس وهو على بُعد أمتار قليلة، أجرد السلاح، مشدوه الملامح، بينما الآخر يصوب

مسدسه نحوه، ويجيب في ثقة بالغة:

- للأسف إحنا مبنقراش أفكار بعض، فمضطر أبلغك بنفسي إني المفروض أقتلك دلوقتي، أوامر الجنرال يا كبير، مش قلتلك هترتاح.

لم يظهر على وجه يونس أي علامة من علامات القلق، بل ابتسم في سخرية وأردف:

- مش محتاجة قراية أفكار علشان أعرف إن مسدسك فاضي، خزنتين ١٥، إنت مبتعدش ولا إيه؟!

***

الغردقة

حدث كل شيء بسرعة فائقة، لم أكن في كامل تركيزي، كأنه حلم، وكأنني لست المتحكم بجسدي المتعرق، أهرب مثل فريسة حديثة العهد يطاردها قطيعٌ من النمور، ركلت صاحب الدراجة النارية وانطلقت، ولكني لم أتحكم بها بشكل مثالي، ربما بسبب الزحام، وربما بسبب التوتر وقلة الخبرة، جعلت أتأرجح يمينا ويسارًا، وعصا القيادة بين يديَّ تترنح ولا تستقر، من خلفي سيارات الشرطة تلاحقني بأصواتها المزعجة، ثم عثرت على هذا الممرِّ الضيق، ووجدت فيه خير مهرب، حيث أن

سياراتهم لن تتمكن من المرور عبره، فانعطفت إليه فجأةً، حتَّى إنني جعلت أتخبط بين جدرانه، ونظرت خلفي لأتأكد أن ليس هناك من يتبعني، ثم نظرت أمامي لأتفاجأ بسيارة عابرة تظهر بغتة من الطريق المقابل، حاولت أن أكبح الدراجة المتسارعة، ولكن ذلك جاء متأخرًا جدًّا، فاصطدمت بها بقوة حتَّى قذف جسدي من فوقها وطار إلى الجهة الأخرى من الطريق، دماء ملأت ثيابي، ورجال الشرطة والعابرون يهرولون نحوي، وكان هذا آخر ما استوعبه عقلي في ذلك اليوم.

***

بورسعيد

ضغط أوركا على زناد مسدسه مصوبًا، وكانت الخزنة بالفعل فارغة، بهت وجهه، ولكن قبل أن يبدي أي رد فعل نبهه يونس بإشارة منه أن يصمت، وأن يظل ساكنًا، وقال بصوت خفيض:

- في حد في المكان!

- تعلالي راجل لراجل ونشوف مين هيخلص على التاني.

قال أوركا، وقد ألقى بسلاحه بعيدًا حتى اصطدم بالحاوية وأصدر ضجيجًا ملأ المكان، وبغتة تنطلق

رصاصة يدوِّي صداها من مكان مجهول.. لتستقر صوب قلب يونس، وتسقطه أرضًا بلا رحمة.

- سلِّم نفسك ومتحاولش المقاومة، المكان كله محاصر.

كان ذلك صوت الضابط أيمن شحاتة مقتحمًا المكان حاملًا سلاحه، انتبه أوركا سريعًا، وعلى سرعة البديهة دحرج نفسه من أسفل الشاحنة ثم اختفى من المكان تمامًا، ولم يبقَ سوى جسد يونس المطروح أرضًا أسفل قدمي الضابط.

***

الغردقة

وتولى الضياء عن صفحة الكون، ووجدت نفسي مكبَّلًا بالأغلال متبوعًا خلف عسكري شرطة، ينقلني خلفه كالدابة الهالكة بين ممرات القسم وعربات الترحيلات، ذراعي معلقة حول رقبتي، وأذني اليمنى تنبض ألمًا مبرحًا، رأسي مضمدة بقطنة تبدو ساخنة كالحمم، وثقيلة كالجبل، كنت في حالة يرثى لها، وبعد سلسلة أحداث طويلة وُضِعت في قفص حديدي في قلب غرفة ربما بأحد الأقسام، لم أنتظر أن يزورني أحدٌ، لم أنتظر شيئًا، وليس عندي رغبة في معرفة مصيري، أو الدفاع عن نفسي، أو أي شيء.. فقط أجلس في صمتٍ

وهدوءٍ، عند تلك الزاوية البعيدة المظلمة، ساعات مرَّتْ، أذان تلو أذان، ربما المغرب، أو العشاء، أو الفجر، فقدتُ الإحساس بالوقت، حتَّى فُتح الباب، وطرقت خطوات هادئة لرجل ذي حذاء أسود لامع، وربطة عنق أنيقة، سألني:

- محمود صلاح مش كده؟

أومأت مصدقًا دون كلمة، وأردف:

- عايز تخرج من هنا، ولَّا عايز تاخد إعدام؟

أرهبني سؤاله، أرعبَني وأعاد الأمل إليَّ في آن واحد، انتفضت واقفًا، وسألته:

- إنت مين؟

- مش بتقول إنك بتقرا أفكار، بصلي في عنيا، وقول أنت أنا مين، ولو جاوبت صح...

- الجنرال؟!

قاطعته، وسألت، ثم أجاب مكملًا كلامه:

- هخرَّجك من هنا..

***

بورسعيد

(قبل نصف ساعة من لحظة القبض على يونس)

- قصدك إن دلوقتي في عملية سطو بتحصل في

المينا؟!

قال الضابط أيمن شحاتة، بملامح تملأها الدهشة، وكان يتحدث إلى لي لي، التي أجابت سؤاله بلهفة:

- أيوه يا فندم أنا دورت عليك كتير ووصلتلك متأخر.

- ومين اللي بلغك بالظبط؟

- اللي بلغني وباعتني ليك هو نفسه واحد من اللي هيخطفوا الحاوية من الميناء، وطالب إنك تقبض عليه.

- إزاي يعني؟!

قال متعجبًا، وفي نبرته شيء من السخرية، فأجابته بجسد يملأه التوتر والفزع:

- لأن العصابة اللي هو شغال معاها مركباله أجهزة تجسُّس، وهو محتاج عملية جراحية علشان يشيلها، ومفيش حل غير إنه يعملها تحت حماية أجهزة الشرطة، وفي سرية تامة كمان علشان يضمن إن محدش هيقتله وهو في غرفة العمليات.

- انتي شكلك مجنونة انتي كمان، إيه اللي انتي بتقوليه ده.

قال الضابط، ولم ينتظر منها إجابة، حمل هاتفه وأجرى اتصالًا:

- أيوه، إنت في المينا؟

...صمت قصير، جلست ليلي على أقرب مقعد تريح أعصابها غير المستقرة، وجعلت قدمها تخبط على الأرض من شدة التوتر، أغلق الضابط المكالمة وعلى وجهه علامات الفزع، قال وعينه تحدق في الفراغ:

- فعلًا في عملية سطو دلوقتي في المينا..

ثم تحرك ليجمع أغراضه سريعًا ناويًا التحرك، قالت لِيلي:

- استنى.. مش هتلحقهم خلاص، أنا عارفة هما رايحين فين بالظبط، هديلك العنوان بس لازم تتحرك بسرعة.

فوضع أمامها ورقة وقلمًا، وقال:

- اكتبي.

فكتبت، ثم ناولته الورقة وهي تضيف:

- اسمع، هو بيقول إنه لابس واقي للرصاص، هو طالب إنك تضربه طلقة في صدره قبل ما تقبض عليه، علشان يكون في مبرر لدخوله غرفة العمليات، ودي صورته.

فتحت شاشة هاتفها فكانت صورة ليونس بذقنه

الكثيفة وشعره القصير، لا يظهر فيها كثيرًا الشبه بينه وبين محمود، تأمَّل الضابط الصورة وأردف:

- الوش ده مش غريب عليَّا!

- أرجوك يا حضرة الظابط لازم تتحرك دلوقتي لأنهم ممكن يقتلوه بعد ما يوصلوا الحاوية.

***

الغردقة / بعد أيام

فتح يونس عينيه على فراش أبيض، بمستشفى عالية الطراز بالغردقة، صوب بصره صورة غير واضحة لشخص يجلس، يبدو أنها امرأة، محاليل معلَّقة في معصمه كأنها تمده بالحياة، وصداع ينبض في رأسه المضمدة بالكامل، مثل قبعة وضعت على رأسه من القطن والشاش، حرَّك رقبته بعد معاناة شديدة، وصب تركيزه على الفتاة الواقفة، قليلًا واتضحت الصورة، كانت لي لي، التي فور أن لاحظت عليه الحياة، نادت بلهفة:

- يونس.. دكتور بشير، يونس فاق..

على الفور دخل دكتور بشير.. ذلك الذي كان على اليخت مع محمود!! خطيب سارة، وصديق دكتور أدهم، فور أن رآه يونس حاول أن ينطق ويحدثه، فلمَّا فتح فمه لم يخرج إلا أنين وتأوهات:

- آه...

حاول رفع ذراعه نحو رأسه ليوقف الألم، ولكن المحاليل كانت تقيده مثل أصفاد من نار.

- ارتاح يا يونس، خليك زي ما إنت متتحركش.. نادي حضرة الظابط بسرعة.

قال بشير، وجَّه أمره الأخير إلى لي لي، التي خرجت فورًا، ودخلت وخلفها الضابط أيمن شحاتة، ومعهم كانت سارة، والطبيب النفسي أدهم!!

- مش معقول الشبه بينك وبين محمود!

قالت سارة فور أن رأته، وأضاف أدهم:

- حمدا لله على السلامة يا أستاذ يونس، عامل إيه دلوقتي؟

وكان الوعي قد تسلل رويدًا إلى رأسه، فقام فزعًا، وكاد يصرخ لولا أن صوته كان مبحوحًا:

- الجهاز.. ال...

ثم جعل يسعل، أمسكت لي لي ذراعه قلقًا، وأردف دكتور بشير مقاطعًا:

- متقلقش إحنا عملنالك أشعة وطلع كان في فعلًا شريحة غريبة في دماغك، وعملنالك العملية وطلعناها.

كل شيء كان له مثل وهم، وجعل يتأمل وجوههم، وفي عقله صورة للجنرال، هو الآن مع محمود، في الوقت الذي يكون يونس فيه مع أصدقاء محمود، يا لسخرية القدر، أليس من المقدَّر لهما أن يلتقيا، الآن تترابط الأشياء أكثر، ولا زال قدرهما في اللقاء لم يشأ أن يتم، وهذا الضابط الذي أطلق النار عليه، أليس هو أيمن شحاتة الذي قتل محمود زوجته بسببه، لقد تأكد يونس للتو أن كل ما خطر له عن محمود حقيقة، وليس مجرد وهم في خياله، وأنهما كانا على تخاطر بالفعل، وهذه الوجوه المتبسمة هي خيرُ دليلٍ. أنهى الدكتور كلامه، ثم وضع يده في جيب البالطو الأبيض، وأخرج شريحة خضراء في حجم عقلة الأصبع، تتخللها خطوط بيضاء، تخرج من أطرافها مجموعة أسلاك قصيرة كأرجل العنكبوت، فتح يونس كفه فأعطاها له، وجعل يتأملها كثيرًا، ثم سأله بصوت يبدو عليه الإعياء الشديد:

- متأكد إنها مش شغالة؟

- لمّا عملنا الأشعة كان في نوع غريب من الإشعاعات بيطلع منها، كأنها رسمة مجال مغناطيسي، بس أول ما طلعناها من دماغك الأشعة دي وقفت، كأن الشريحة كانت بتستمد طاقة من

حرارة المخ، وأول ما نزعناها فصلت أوتوماتيك، المهم بس إنت كويس دلوقتي؟

أومأ يونس، ثم نظر إلى كل شخص بعينه، وجعل ينبئهم بأسمائهم:

- بشير، أدهم، أيمن، سارة، مش كده؟

- هو محمود حاكيلك عننا كمان؟!

سألت سارة، تملأها بهجة ودهشة، وأضاف يونس:

- تقريبًا كده.. هو إيه اللي حصل من ساعة الميناء؟!

وعمَّ صمت قصير، رمق كل منهم الآخر صمتًا، وقال الضابط أيمن:

- لو سمحتم يا جماعة سيبونا لوحدنا شوية.

وتفهَّم الجميع فخرجوا، ربَّت الدكتور بشير على كتف الضابط وهو يشير له أن يكون هادئًا ولا يجعله يتحدث كثيرًا، فأومأ موافقًا يطمئنه، ثم انتظر حتى خرج الكل، وانغلق الباب.. ثم قال:

- اسمع يا أستاذ يونس، إنت مش متخيل أنا عملت إيه علشان نوصل للمرحلة دي، بصراحة لما آنسة لي لي جتلي البيت الأول مصدقتهاش، لولا إني فعلًا لقيت الحاوية طلعت من المينا، ساعتها جيتلك لوحدي من غير أي دعم، بصراحة أنا بدأت

ألاحظ إن موضوع الحاوية ده فيه ناس مهمة في البلد بتحاول تسهِّله وتعديه بكل الطرق، علشان كده ساعدتك، وفي سرية تامة، محدش من جهاز الشرطة يعرف إنك معايا دلوقتي، أنا بلغتهم إني مسكت الحاوية لكن المجرمين هربوا، لما ضربتك الطلقة الحمد لله مخترقتش الواقي اللي إنت كنت لابسه، لكنها كسرتلك ضلع، كلمت أدهم وأدهم كلم بشير، وجبناك هنا على مسؤوليتي، في معلومات كتير محتاج أعرفها منك، بس مش دلوقتي، لما تقوم بالسلامة، لكن بصراحة اللي مش قادر أفهمه هو موضوع الشبه اللي بينك وبين محمود، هو أنتم إخوات ولَّا إيه حكايتكم.

- أنا نفسي مش عارف، ومحتاج ألاقيه بأي طريقة.

- هو إنت مقابلتهوش قبل كده!

- لأ.. هو فيه تواصُل غريب بيحصل ما بينا، تخاطُر عن بعد، ظاهرة التخاطر دي مش غريبة، دي حصلت لناس كتير قبلنا، لكن مش بالكثافة دي، وكمان موضوع الشبه ده هو اللي هيجنني، لو إحنا توأم ليه أهالينا خبوا علينا!! لكن مسيري أقابله وأفهم كل حاجة.. (ثم تنهد يونس، وأردف) أول مرة أحس إني بتكلم بحرية.

كانت عينا الضابط تحدقان في الفراغ، شاردة ومترددة، ثم قال بعد حيرة:

- اسمع يا أستاذ يونس، في موضوع كده لازم أكلمك فيه، لأني مش عارف إذا كنت هعرف أكلم محمود فيه ولا لأ.

- موضوع ريماس مراته، مش كده؟

سأل يونس، وارتبك الضابط، بدا على وجهه حزن شديد، نكَّس رأسه وقال:

- الله يرحمها.. ريماس أنا كنت أعرفها فعلًا، لكن والله عمري ما لمستها، ولما كنت بتكلم في اليخت كنت أقصد واحدة تانية خالص، مش عارف إزاي محمود كان بيحسب إني أقصد مراته، يمكن ريماس كانت بتحبني، هي عمرها ما قالتلي ده، بس أنا حسيته منها، أنا ظابط جمارك وعندي فراسة بحكم شغلي، كلهم على فكرة كانوا فاكرينك محمود أول ما شافوك، بس حلق شعره وطوِّل ذقنه، مكانش حد مصدق، أنا الوحيد اللي من أول نظره في عينيك عرفت إنك واحد تاني يشبهله.

- يمكن محمود شاف في عيون مراته إنها ميالة ليك، ودي كانت غلطته لأنه أهملها، ولما سمعك بتحكي في اليخت افتكرك تقصدها، للأسف ساعات ممكن نظلم ناس بسوء الظن، حتى لو

وصلت إننا نقرا أفكارهم.

- هو إنت متعرفش محمود هرب فين؟

- محمود مهربش، محمود اتخطف، وهو دلوقتي في مكان اسمه جزيرة الدولفين.

***

جزيرة الدولفين

- طبعًا جريمة زي اللي إنت عملتها دي ملهاش غير حل من اتنين، يا إعدام يا مؤبد.

- أنا فين؟

كنتُ في غرفة واسعة، مكيفة، موصدة النوافذ، عالية الإضاءة، مكتب كبير أنيق، وساحة واسعة يتمشى فيها هذا الجنرال وعلى رأسه قبعة رعاة البقر، وعلى الجهة الأخرى من المكتب طاولة بمقعدين أجلس أنا على إحداهما، والآخر فارغ، ليس سوانا بالمكان، وكانت على رأسي قبعة مخروطية تشبه قبعة جنود اليابان القدامى، لمّا سألت عن مكاني لم يجبني، لكنه قال:

- واحدة واحدة عليا علشان مبحبش أتكلم كتير يا محمود.. محمود مش كده؟

أومأت، وعلى وجهي علامات رهبة ودهشة، أنظر إلى كل زاوية في المكان، كل تحفة وُضِعَت

فيه، كل لوحة، وكل كتاب، ثم خلعت تلك القبعة المخروطية، وجعلت أتأملها، فأخذها الجنرال من بين يدي بلطف وابتسامة، وأعادها على رأسي مرة أخرى، وجعل يكمل مشيه في ردهة المكتب الواسعة، ويقول بنبرة واثقة مثل محاضر محترف:

- بص يا حودة، إنت دلوقتي ثروة قومية، إنت قدرت تنشَّط مناطق في مخك أجدادك بطلوا يستعملوها من آلاف السنين، إحنا بقالنا كتير بنحاول ندرَّب الجنود علشان يوصلوا للقدرة دي، لكن الموضوع كان مستحيل، مش عارف إزاي في اليابان قِدْروا يوصلولها في وقت من الأوقات، لكن برضو الموضوع يتوقف على عوامل كتير، أولها العوامل الوراثية، وأهمها.. إنك تصدق إنك تقدر.. مرضى كتير على مَر التاريخ ماتوا من أمراض كانوا فاكرين إنها عندهم، ومرضى أكتر اتعالجوا من أمراض كانت عندهم، بعلاج وهمي كانوا فاكرين إنه بيعالجهم، ظاهرة البلاسيبو، والتاريخ مليان قصص، الفكرة إن عقلك كسول، مش هيساعدك تعمل حاجة لو فاكر إنها مستحيلة، هو برضو عايز يوفر طاقة، كفاية إن العقل أكتر عضو في الجسم بيسحب طاقة، فهو يعني الراجل مش ناقص هَم، بس لو أقنعته إن الحكاية ممكنة، هيبدأ يبذل مجهود في تنفيذها، لو عندك دافع حقيقي لكده، وإنت تقريبًا قدرت

توصل لده، وإحنا بقى عايزين نطور من قدراتك دي ونستفيد منها، فبنعرض عليك تنضم للمنظمة بتاعتنا، مقابل إننا نخلصك من السجن والإعدام، قلت إيه؟

- منظمة إيه بالظبط؟!

قمت واقفًا قبل أن أطرح سؤالي، لأن هذا الجنرال قد اقترب مني كثيرًا، وشعرت ببعض الرهبة والخوف، سألني:

- بتدخن؟

أومأت، رغم أن خبرتي في التدخين ليست إلا سيجارة واحدة، ولكن لا مانع من الثانية، تناولتها، وأوقدها لي. بعد رشفة جعلت أسعل كثيرًا، وحاولت كتمها حرجًا، فبدت كالنار في حلقي، جلس الجنرال على مكتبه وأشار بأصابعه، فجلستُ مرة أخرى، وأجاب سؤالي الأول وهو مشغول بالبحث عن شيء:

- منظمة الدولفين، إحنا مهتمين بذوي القدرات الخاصة من البشر، بنحميهم ونطور من قدراتهم في مقابل إننا نستغلها في بعض العمليات اللي بتحافظ على استقرار العالم من الحروب والنزاعات.

- أيوه أنا سمعت عن المنظمة دي..

- انسى كل اللي سمعته، قلتلك مبحبش أتكلم

كتير، فسيبني أشرحلك كل حاجة واحدة واحدة، إنت هنا ليك كامل الحرية في إنك تقبل أو ترفض، ليك حقوق وعليك واجبات، إنت تقدر حتى ترفض من غير ما تعرف أي حاجة ونرجعك تاني السجن، تحب أتكلم ولا لأ؟

- .. قول.

- شيفرة الدولفين.. عملية جراحية من خلالها هنطور قدراتك العقلية، هنركبلك جهاز صغير بيساعدك على استقبال الأفكار، وبيساعدنا نعرف مكانك ونسمعك علشان نحميك من أي ظرف، والأهم إن الجهاز بيحمي أفكارك من أي قارئ أفكار، حتى أنا نفسي مقدرش أعرف أنت بتفكر في إيه، وعلشان كده أنت لابس البتاعة اللي على راسك دي دلوقتي، ووظيفتها تحمي أفكارك، لأن دي خصوصيات ومحدش هيخترقها بدون موافقتك..

كان قد عثر على ما يبحث عنه، بضع أوراق تم تدبيسها معًا مثل عقد شراء، قام وجاء يجلس أمامي، لذلك الرجل نبرة صوت ونظرات لها رهبة وحضور، في كل مرة أطرح فيها سؤالًا كنت أشعر بتردُّد كبير، وضع تلك الأوراق أمامي، وسألت قبل أن أنظر فيها:

- يعني إيه اللي هيحصل في العملية دي بالظبط؟

- موضوع كبير وأنا مش متخصص، كل حاجة مكتوبة في العقد اللي هتمضيه، اقرأ، وناقشني.

- طيب هو إحنا فين بالظبط؟!

فقام واستدار وفرد ذراعيه وقال:

- إنت يا عزيزي في جزيرة الدولفين.

***

الغردقة

- جزيرة الدولفين!! دي موقعها فين؟!

سأل الضابط أيمن، عاقدًا حاجبيه، فهو لم يسمع أبدًا عن جزيرة اسمها الدولفين، ملأ العجب والفضول نبرته، وأزادتهما إجابة يونس:

- مش عارف، رغم إني قضيت فيها أكتر من عشر سنين.

- دي سجن؟

- تقدر تقول مدرسة، أو معسكر تدريب، اتعلمنا فيها حاجات كتير جدًّا، أنا فاكر مرة وأنا صغير طلعت على برج مراقبة هناك وبصيت على البحر، شُفت دلافين بتعوم، وسفن ملاحة، ومركب صيد كبيرة، رافعة علم أحمر مثلث، مرسوم عليه إكليل

ذهبي حوالين غصن زيتون.

- إكليل وغصن زيتون، سفن ملاحة.. تفتكر ممكن تكون فين؟

- أستاذ يونس.. أنا عرفت مكان المذيع اللي... آسفة، قاطعتكم؟!

كانت سارة، وقد فتحت باب الغرفة ودخلت للتو.

- في إيه يا سارة؟

قال الضابط.. وأضافت:

- أصل كان في برنامج تلفزيوني زمان على القنوات المصرية، مرة استضافوا فيه واحد اسمه عنان القاضي، وقعد يتكلم عن منظمة اسمها الدولفين مهتمة بذوي القدرات الخاصة والتخاطر، بس الحلقة اتوقفت، ولا البرنامج ولا المذيع ظهروا بعد كده، ولا حتى الراجل اللي استضافه، المهم إني من فترة افتكرت اسم البرنامج، ودلوقتي عرفت إن المذيع لسه عايش، وموجود في المنصورة، ممكن نروح ونتكلم معاه، أكيد ممكن يكون عارف عنان ده فين، أو عرف منه أي معلومات في الكواليس.

- معاكي رقمه؟

سأل يونس بفضول شديد، وأجابت سارة:

- مبيردش.

- خليكي وراه لحد ما يرد، فهميه إننا عايزينه في لقاء صحفي أو أي حاجة، لازم نقابله بكرة الصبح.

- الصبح إيه وانت في الحالة دي!!

- مفيش وقت يا حضرة الظابط، مين القمورة دي؟

كانت طفلة صغيرة تقف خلف سارة، عمرها في حدود عامين، جميلة جدًّا، وترتدي فستانًا قصيرًا، ناديتها فاختبأت خلف سارة بخجل، كانت تشبهها كثيرًا، حسبت أنها أختها، وسألت عن اسمها فأجابت سارة نيابة عنها:

- ياسمين.. بنتي أنا وبشير.

- انتي وبشير!! هو انتي وبشير متجوزين ومخلفين.

- أه.. من تلت سنين، أنا عارفة إنه لما كان خطيبي حكيت لمحمود إني مش بحبه، بس الحقيقة أنا كنت ظالماه، بشير طلع...

- استني بس.. انتي حكيتي لمحمود إمتى!

- من زمان من قبل ما يتقبض عليه.

- هو محمود متقبضش عليه أول إمبارح!!

وكان وجه يونس مشدوهًا، وكأنه رأى البحر ينشق أمام عينيه، فغر فاه، واتسعت عيناه كأنما تحاول أن

تستقبل الحقيقة، و أضاف الضابط مقاطعًا:

- أول أمبارح إيه يا برنس، هي العملية أثرت عليك ولا إيه، محمود اتقبض عليه من أكثر من ٣ سنين.

- ٣ سنين!

***

جزيرة الدولفين

- مكتوب إن شيفرة الدولفين دي هتأثر على ذكرياتي؟

- وإنت محتاج ذكرياتك في إيه يا حودة؟

قال الجنرال وضحك، ثم اتسعت عيناه، رمقني بحدة وهو يسند كفيه على الكرسي المقابل، وانقلبت نبرته جادة منخفضة مثل شيطان:

- عايز تفتكر إنك قتلت ريماس، ولا إنها كانت بتخونك..

ثم استدار وعاد يتحدث بنبرة مرتفعة واثقة:

- اسمع أنا هكون صريح معاك، حتى الحوار اللي بيحصل بينا ده إنت ممكن بعد العملية متفتكرهوش، بس ده ميمنعش إنك لازم توافق على الاتفاق وتمضي عليه، إحنا بنراعي جدًّا حقوق الإنسان، وعمرنا ما هنجبرك على حاجة، إنت مش

في سجن، بس خليك متأكد إنك بعد العملية، هتكون حاجة أقرب لإنسان خارق، هيكون معاك قوة وفلوس وسُلطة، كل طلباتك مجابة، إنت قيمتك أكبر من إنك تتحط في سجن يا محمود، ومفيش حاجة هتعملها غصب عنك، أي حاجة هنطلبها منك هيكون ليك كامل الحق والحرية في قبولها أو رفضها، قلت إيه؟

الفصل السابع

طريق المنصورة

قطعت السيارة الطريق بالسرعة القصوى، في جنح الليل، تسابق كل السيارات العابرة مثل لعبة سباق، سبع ساعات متواصلة، وحتى شروق الشمس، بلا نوم، ولا راحة، الضابط أيمن على عجلة القيادة، خلفه سارة ولي لي وبشير، وإلى جواره يونس، الذي كان على حاله مشدوهًا مذ عرف أن الفارق بينه وبين ما حدثَ لمحمود أكثر من ثلاث سنوات، وأنه كان يرى أشياء من الماضي ويظنها من الحاضر، كيف ولماذا حدث ذلك؟! راحت رأسه تؤلمه من شدة التفكير، لا يطيق الانتظار حتى الوصول إلى بيت ذلك المذيع المتقاعد، ربما يكون عنده تفسير أو إجابات مقنعة على ما يحدث، أو حتى يعرف موقع تلك الجزيرة اللعينة، قبل الظهيرة كانوا قد وصلوا إلى هناك، في بيت الأستاذ مصطفى فوزي، المذيع المتقاعد، فتحت زوجته، سيدة عجوز، جميلة الملامح كعادة أهل المنصورة، أكرمتهم وضايفتهم، ثم دخلوا إلى أستاذ مصطفى، الذي لشِدَّة مرضه لم ينهض من فراشه، جلسوا حوله مثل أبنائه، عرَّفُوه بأنفسهم وبما أتوا من أجله، وقال لهم بنبرته العجوز اللطيفة:

- أنا ضيعت عمري بدوَّر في القضية دي، من ساعة ما اتوقفت بسبب حلقة عنان، وأنا ببحث، لَكِنْ عمري ما لاقيت مادة قوية ومقنِعة تستحق حتى إني أعمل عنها كتاب، ولما بقيت مش فاضلي في الدنيا غير أيام، تجيلي إنت وصحابك، علشان تثبتولي قبل ما أموت إني مضيعتش عمري على الفاضي.

- ربنا يطوِّل في عمرك يا أستاذ مصطفى، هو عنان مبلغش حضرتك بمكان جزيرة الدولفين.

- مكانش يعرف مكان الجزيرة، لكن هو كلمني عن معلومات خطيرة جدًّا عن عملية جراحية اتعملت له وهو في الجزيرة دي اسمها شيفرة الدولفين.

- يعني تقدر تقولنا إيه هي شيفرة الدولفين دي؟!

- فاضيين؟

سألهم، وكأنه على وشك أن يحكي قصة طويلة، تبادلوا النظرات، ثم أومأوا جميعًا، وبدأ حديثه:

- أي دكتور عارف إن المخ البشري فيه مساحات اسمها Silent areas، المساحات الصامتة، إحنا لحد دلوقتي مش عارفين المساحات دي كانت بتعمل إيه من آلاف السنين، لكن يقال إن بعض الناس في أماكن من المساحات دي عندهم

بتتحول لمناطق استقبال وإرسال، طاقة نفسية تطلع وتتحول لموجات، ويبدأ المخ يستقبل معلومات من خلال قنوات أخرى غير الحواس الخمس اللي إحنا عارفينها، لكن محدش عارف أنهي نقطة بالتحديد المسؤولة عن عملية التخاطر دي، أبحاث من مختلف الدول اتصرف عليها ملايين، بغرض استغلال القدرات دي في الحروب عن طريق زرعها للجنود والقادة، وطلعت نظريات اتكلمت عن الغدة الصنوبرية، وناس حددت مناطق تانية في المخ، واللي افترض أن الجزء ده مش في المخ أصلًا، لكن الناس اللي عندهم القدرة دي نادرين جدًّا علشان يتعمل عليهم التجارب الكافية، وكتير ماتوا أثناء التجارب، وطبعًا الأبحاث كلها فشلت، لكن حسب كلام عنان منظمة الدولفين توصلت لاكتشاف تاني مهم جدًّا، طريقة لاستبدال المنطقة المسؤولة عن الذاكرة طويلة المدى..

***

جزيرة الدولفين

صوت ماكينة الحلاقة ينصبُّ في أذني، تمسح الشعر من على رأسي كالممحاة، أتمعَّن في وجهي عبر المرآة وقد اصفرَّ من شدة الخوف، يتساقط الشعر من فوقه ببطءٍ مثل جليد أسود،

أصبحت أصلع تمامًا، ثم بقلب مضطرب ارتديت الزي الخاص بالعمليات، ودخلت راقدًا على سرير متنقل، في غرفة عمليات واسعة، منقسمة نصفين متماثلين وكأن مرآة بالمنتصف، يحول بينهما ستارة بلاستيكية شفافة، وبكل نصف سرير، ومجموعة أطباء، ومصابيح وأجهزة لها أذرع تتدلى من السقف مثل أخطبوط، كنت على اليمين، وفي النصف الأيسر سرير يحمل جسد لشاب فاقد وعيه، يضع قناعًا أبيض يخفي ملامحه، وعلى ظهر كفه وشم بالرقم ١٠٩، سألت عنه فلم يجِبني أحد، ولاحت أمام عيني حقنة البنج، فحصلت على كامل انتباهي ورهبتي، قيل لي أن أعد لعشرة، ولم أكد أكمل خمسة حتَّى انشقت الصورة نصفين، ثم أرباعًا، ثم دار كل شيء ببطءٍ في إظلام متدرج.

***

ارتسمت علامات العجب على أوجه الحضور لما قاله هذا المذيع المتقاعد، تبادلوا النظرات، ولكن لم يقاطعه أحدٌ، وأردف هو بعد أن تناول شربة ماءٍ:

- من هنا جت لهم الفكرة، بدل ما يزرعوا للجندي بتاعهم المنطقة المسؤولة عن قراءة الأفكار، واللي مش عارفين لحد دلوقتي مكانها، هيعكسوا العملية، وياخدوا من المتدرب بتاعهم منطقة الذاكرة

طويلة المدى، ويزرعوها للي عنده قدرة على التخاطر بدل ذاكرته الأصلية، فلمَّا يقوم يكون فاكر كل ذكريات الراجل بتاعهم، وناسي كل حاجة عن نفسه، ويبقى ضمنوا تدريبه وولاءه للمنظمة، اللي كان ممكن يستغرق سنوات، لأن حد عنده قدرة على التخاطر مش سهل يخضع لمنظمة هتستخدمه في تجسس واغتيالات لمصلحتها..

***

غرفة العمليات

يفتح الطبيب قفلًا فينزع القناع الأبيض للشاب صاحب الوشم الراقد بجوار محمود، فتظهر ملامح لشخص لا يشبه محمود، شاب رسمت له الشمس لونًا غامقًا حول عينيه وأنفه وفمه بحجم فتحات القناع، وتبدأ العملية للاثنين في نفس الوقت، بعد نزع طبقة الجلد تفتح عظام الجمجمة بآلة مثل منشار دقيق، وبطريقة خاصة تنزع نفس المنطقة من المخ عند الشابين، الخاصة بمحمود توضع في طبق صغير، ثم توضع القطعة الخاصة بالشاب صاحب القناع في رأس محمود، يتبعها الشريحة الصغيرة، وبعد ساعاتٍ تُغلَق العملية، وينزع الأطباء أقنعتهم، ثم يبدأ رسَّامُ الوشوم المحترف برسم الرقم ١٠٩ على ذراع محمود، تمامًا مثلما كان عند الشاب، ثم

يضعون له القناع الأبيض.

***

- والأهم أن المتدرب نفسه لما بيقوم مش بيكون عارف إنه ده جسم حد غيره.. المنظمة بتفهمه إنهم أكسبوه القدرة دي عن طريق عملية سرية اسمها شيفرة الدولفين، هما بياخدوا المتدربين دول من وهم أطفال، بيلبسوهم قناع لحد ما يكبروا، فبيكونوا تقريبًا ناسيين شكلهم اللي أكيد اتغير، بيختاروا أقرب متدرب في السن والتكوين الجسماني للشخص اللي هتتنفذ عليه العملية، وبيتنقل على جسمه كل الوشوم والعلامات اللي بتميزه بالملِّي، بحيث لما يصحى ميحسش إنه اتنقل لجسم واحد تاني.

***

قام من العملية بعد إغماءة طويلة، وجلس على سريره يتأمل نفسه في مرآة، جسده الهذيل، المحاليل المعلقة، والقناع الأبيض الذي يغطي وجهه، كان الجنرال خلفه، ونادى عليه:

- يونس..

فانتبه بفزع، سأل الجنرال والشغف يملأ وجهه:

- إنت كويس؟

- كويس، بس حاسس إن أنا خسيت جامد بعد العملية.

- طبعًا.. إنت بقالك اسبوع في البنج، عايش على المحاليل، ده غير تأثير العملية.. مبروك يا بطل.

ثم وضع يده في جيبه، وأخرج مفتاحًا صغيرًا، أعطاه له وأردف:

- إنت رسميًا بقيت جندي من جنودنا الخارقين، تقدر دلوقتي تشيل قناع المتدربين.

تناول المفتاح بشغف، وكادت عيناه تدمعان من الجذل، فتح القفل وأنزل القناع بهدوء، واتسعت عيناه بفضول، ونظر إلى وجهه في المرآة كالمشتاق، يونس، بملامح محمود.

***

- معنى كده إن اللي كان بيحصل بينك وبين محمود ده مش تخاطر أصلا زي ما إنت فاكر، ده مخك بيحاول يرجعلك ذكرياتك القديمة!!

قال الدكتور بشير، وسط انتباه من الحضور، وقد فغر فاه كل منهم، يحاولون استيعاب ما قيل.

- أنا مش فاهمة.. يعني إنت مش يونس؟

سألت لي لي، وقد بدا يونس مترددًا فزعًا، يتأمّل كفّيه وهو يجيب:

- مش عارف.. بس لو هما شالوا الجزء الخاص بذاكرة محمود، إيه اللي بيرجعهالي تاني!

حينها أجاب الدكتور بشير:

- عادي.. حصلت كتير إن ناس فقدت ذاكرتها نتيجة ضرر في المخ، وبعد فترة الذاكرة بترجع بالتدريج، كأن في مخزن احتياطي للذكريات في مكان في جسم الإنسان، ده في حالات لناس اتعملها زراعة أعضاء، زي زراعة قلب مثلًا، والناس دي كانت بتفتكر حاجات من حياة المتبرع، أشهرهم حالة «كلير سيلفيا»، اللي اتعمل عنها فيلم، اتعملها زرع قلب ورئتين، وبعد العملية بدأت تظهر عليها عادات وصفات المتبرع، وليها كتاب اسمه change of heart بتتكلم فيه عن تجربتها، وكان من الكتب الأكثر مبيعًا.

- أنا مش مصدقة اللي بسمعه.

قالت سارة ثم ضرب جرس البيت، فتبادلت الأعين النظرات، وعمَّ صمتٌ قصيرٌ.

***

كان يونس على الجزيرة يتلقى تدريبات شاقة في رفع الأثقال واللياقة البدنية، بينما الجنرال يتابعه من بعيد، بابتسامة يملأها انتصار وفخر، ثم رحلَ

دون أن يكلمه، ودخل إلى غرفة بها جسد راقد للشاب الآخر الذي كان في غرفة العمليات، لا زال الوشم ١٠٩ على كفه، لا زالت رأسه مضمدة، وقد وجَّه الجنرال مسدسه كاتم الصوت نحوه، وضرب طلقة واحدة، انتفض لها جسده، ونثرت الدماء.

***

فتحت السيدة العجوز الباب الذي دوَّى جرسه للتو، بابتسامة رحبة، وخلف الباب كان أوركا، الذي باغتها بسرعة قبل أن تصدر صوتًا، كتم أنفاسها وثنى رقبتها فأفقدها الوعي، ووضعها على الأرض بلطفٍ، ثم بحذر أطل برأسه على طرقة طويلة تتوسطها غرفة فارغة على اليمين، وغرفة أخرى في آخر الطرقة، بابها مفتوحًا، وهم مجتمعون بها، وصوَّب بصره على الناحية الأخرى من السرير يجلس يونس، تجاوره لي لي، كان يونس مشدوهًا يتأمل نفسه كعائدٍ من الموت، حينئذٍ صوَّب أوركا فوهة مسدسه نحوه وأطلق رصاصته، لاحظت لي لي، صرخت:

- يونس

وقامت تدفعه، فأصابت الطلقة ذراعها، ضربة اندفعت لها، وأسقطتها فورًا من النافذة.

انبطح يونس أرضًا إلى جانب السرير، ثم سحب

المذيع إلى جواره، الذي بدا وكأنه فقد النطق من شدة الفزع، ارتسم الرعب على كل الوجوه، عدا يونس الذي كان في أشد غضبه، والضابط أيمن كان في شدة الحذر، أخرج طبنجته ووقف بظهره إلى جوار الباب، وكان يونس أعزل السلاح، نظر حوله فلم يجد سوى قبعة لي لي التي سقطت منها، فتناولها ورمى بها إلى الضابط، أشار له أن يضعها على رأسه، ثم خرج من النافذة، حاول أوركا إصابته ولكن غطّاه الضابط بطلقات عشوائية، فاختبأ أوركا في إحدى الغرف بالطرقة، وقفز يونس نحو شرفة الصالة الرئيسية، قلبه يدق بتسارع شديد، ثلاثة طوابق إلى الأسفل حيث يفترش جسد لي لي وسط الدماء، وداخل الصالة عند الباب جسد العجوز فاقدة وعيها، وكان برواز صغير مستدير لمرآة على يساره، كسره يونس بتحفة رخامية وأخرج منه قطعة زجاج حادة واتخذها سلاحًا، وقف خلف كتف الحائط وجعل يحرك المرآة نحو الطرقة ليتبين مكان أوركا.. فلمحها بسهولة وعرف مكان يونس، وقد ظهر له جزءٌ من كتفه، فأخرج سلاحه مصوبًا، وخرجت كفه حاملة السلاح من باب الغرفة، فباغته الضابط من الجهة الأخرى بطلقة أصابت كفّه فأطاحت منها السلاح ومعه إصبعين، صرخ أوركا وعاد مختبئًا، فهجم عليه يونس، وجعل

الاثنان يتصارعان، ضربات مصدودة ومعكوسة من الطرفين، حتَّى أن لم يصب أحدهما الآخر بضربة سديدة واحدة، وهجم الضابط أيمن بسلاحه، ولكن أوركا باغتَهُ بركلتين، فأطاحت الأولى بالسلاح وأطاحت الثانية به، تناول يونس عصا طويلة فضربه بها، وصدَّها أوركا بكفِّه المصابة، فجعل يصرخ صرخات مدوية، انكسرت العصا، وخرج يونس يلتقط السلاح الملطخ بالدماء في الطُّرقة، وقام الضابط أيمن والتقط سلاحه، ونظر الاثنان نحو الغرفة يصوبان أسلحتهما، فلم يكن أحدٌ بها، وكأن أوركا اختفى فجأة، ونظر الاثنان من شرفة الغرفة فلم تكن سوى سيارة الإسعاف التي جاءت تسعف لي لي والناس من حولها حشدًا.

***

- يعني هتقوم بالسلامة.

- الرصاصة جت في دراعها ومكانتش خطيرة، المشكلة في الوقعة، حصلها شوية كسور وخبطة جامدة في دماغها عملتلها ارتجاج، حالتها صعبة يا محمود، ويمكن لما تقوم متفتكرش حاجة..

قال دكتور بشير، ثم خرج يونس ورأسه منكسة في أشد الحزن، ضاق قلبه واختنقت أنفاسه، بطُرقة المشفى التف حوله الضابط أيمن، وسارة، وأدهم،

حاول الجميع مواساته، وبدا وكأنه لا يسمع أحدًا، بل أبعدهم بذراعه ورحل دون كلمة، خرج من باب الطرقة فانغلق خلفه، وأسرع أدهم وأيمن يناديانه، تارة باسم محمود، وتارة باسم يونس، ولكنَّه لم يجِب قَطّ، ولما ذهبوا خلفه لم يلحقوا به، كان قد أخذ سيارة أجرة ورحل من المكان.

***

الغردقة

- أستاذ محمود، مش معقول، إنت طلعت من السجن!

كان ذلك صوت عم فتحي، جار محمود، الذي سمع ضجيجًا على السلَّم ففتح بابه، رمقه الآخر، وقال بحزن:

- لأ أنا مش محمود يا أستاذ، أنا أخوه الكبير، عن إذنك.

كان يونس يضرب بشاكوش ومفك على الباب حتَّى خلع القفل من مكانه، ثم حفر مكان يفتح منه الطبلة، ودخل إلى البيت حاملًا أغراضه، على كتفه عصا بيسبول جديدة، وعلى رأسه قبعة رعاة بقر سوداء، مطوقة بأسطوانات صغيرة تحمي أفكاره، أغلق يونس الباب، تاركًا عم فتحي مشدوهًا،

يحمد ربه أنه لم يتكلم كثيرًا، وفتح النور عن بيت قديم، مليء بالغبار والأتربة في كل زاوية، وفوق كل سطح، راح يتمشى متأملًا كل ركن من أركان المكان، تلوح في ذاكرته صور متقطعة لمحمود الذي لا يصدق حتى الآن أنه مجرد ذاكرة معلقة في جسده، عثر في طريقه على مشغل للأغاني فقام بتشغيله، وكانت معزوفة القمر، التي اعتاد محمود أن يسمعها، تسللت الموسيقى إلى قلبه، وجعلَ يدور حول نفسه في الغرفة، أو كانت الغرفة تدور به، خفق قلبه، ازدادت حرارته، وارتعشت يداه، كانت الموسيقى المتسارعة خيرَ منشط لذاكرته، وفجأة تفجرت اللحظات في رأسه كالينبوع.. وتذكرتُ كل شيء، تذكرتُ مَن أنا، ونظرتُ إلى كفي الموشوم، فاتسعت حدقتاي، وجعلت أتحسس الأشياء، هنا على السفرة، عندما كنت آكل الثومية، تذكرتُ طعمها، وشممت رائحتها، الآن فقط تتجلى ذاكرتي بشكل واضح، أنا محمود، وكأنني جسد واحد عاش حياتين، وكأنني عجوز في قلب شاب، أنا محمود، وعشت حياة يونس، شعور غريب، هوية مضطربة، وخليط بين اثنين متباينين، ثم يضرب الباب بقوة، فأقفز نحو المسدس، وأفتح الباب بحذرٍ، ولكنه كان أدهم، هذه المرة عانقته، وكأنني لم أرَه منذ سنوات.

***

أمام شاشة لابتوب يجلس أوركا في غرفة بأحد الفنادق، وكانت يمينه ملفوفة بأكملها بقطن وشاش مثل قفاز كبير منفوخ، وعلى الشاشة يظهر الجنرال:

- عارف الفرق بينك وبين يونس إيه يا أوركا، لو كانت الحكاية العكس، وبعت يونس هو اللي يروح علشان يصفيك، مكانش هيسيب المكان طول ما إنت فيك الروح..

- يا جنرال أنا مش هسيبه، مش هيجيلي نوم غير لما أخلص عليه، أرجوك سيبلي المهمة دي.

- قُدَّامك ٢٤ ساعة.

ثم أغلق الجنرال المكالمة، وضرب أوركا المكتب من سخطه، وخلع الرباط من يمينه، فكان ينقصها إصبعا البنصر والوسطى، وحاول رفع مسدسه بها على هذا الحال، وراح يصوِّب نحوَ زجاجة الفودكا البعيدة، لكن كفه كانت تهتز مثل عجوز مريض، فقبض عليها بيساره حتَّى استحكمها، ثم أغلق عينًا وصوَّب بالأخرى، ثم ضرب فتناثر الزجاج.

***

- أنا افتكرت كل حاجة يا أدهم، أول ما جيت البيت، ده ذكريات محمود اللي كانت مشوشة شَبه

الحلم وضحت، دلوقتي أنا مش عارف أنا مين، لما بقول أنا، أقصد أنا محمود، ولا أنا يونس.

كنت نائمًا على الأريكة، أتأمل السقف الذي أحفظه عن ظهر قلب، وإلى جواري أدهم، ينصت إليَّ باهتمام شديد، كم كنت أحتاج إلى حوار مع صديق.

- متشغلش بالك يا محمود، المهم إنك لسه عايش، إحنا كلنا جنبك، اللي إنت فيه ده ميزة مش عيب، اتعلم من تجارب الاثنين، وخليك حد تالت أفضل منهم.

- مفيش حد مظلمتهوش، مراتي، الظابط أيمن اللي وقف جنبي وأنا كنت هقتله في اليخت، حتى دكتور بشير، كل دول أنا مقدمتلهمش أي خير علشان يقفوا جنبي كده، أنا عشت شخصيتين، محمود صلاح، المستهتر اللي ماشي بدماغه ومش بيسمع كلام حد.. ويونس سليمان، اللي عاش مغسول دماغه بينفِّذ الأوامر بدون أي تفكير، وفاكر إنه بيعمل الصح، وأنا عمري ما كنت صح.

- اللي إنت بتقوله ده معناه إن إنت بقى عندك وعي، يمكن الوعي ده مش هيخليك مرتاح نفسيًّا، بس هيخليك صح.

- أنا مش هرتاح غير لما أوصل لمكان الجزيرة دي.

- قلتلك متشغلش بالك يا أبو صلاح، إنت محتاج ترتاح وتفصل، أنا كلمت أيمن وهيجي بالليل يقضي اليوم معانا، ومش هنسيبك غير لما نحل المشكلة دي ولو وصلت إننا نصعَّدها لكل القيادات ووسائل الإعلام، المهم كبر دماغك دلوقتي، تلعب شطرنج؟

- هتكسبني علشان مش رايق.

- أكسبك ازاي وإنت بتقرا أفكار، وبعدين إنت دلوقتي بتفكر بدماغين مش بدماغ واحدة، ده إنت تاخد بطولة العالم.

حينئذ انتفضت من مكاني، لمعت عيني لما أوحى كلامه، وقلت بحماسٍ شديدٍ:

- بفكر بدماغين، إنت صح.

- مالك في إيه، إنت بتعمل إيه؟؟

قمت مسرعًا نحو ورقة وقلم، في مكان أحفظه جيدًا، وجلست أمام أدهم على الطاولة، وضعت الورقة، وأجبته:

- بفكر بدماغ تانية.. يونس بيحب البيسبول والرماية، ومحمود بيحب السباحة والغطس، أنا بحب الأربعة، يونس بيقرا في علوم الاجتماع والنفس، محمود في الجغرافيا والتاريخ، بس أنا عندي خبرة فيهم كلهم، ريحة البحر اللي يونس كان

بيشمها في الجزيرة دي ريحة البحر الأحمر، لأن ريحته بالنسبة لمحمود مميزة وليها طابع خاص، والجزيرة دي صعب تكون في نُص المحيط، دي أكيد تابعة لدولة وبتستمد منها الموارد والطاقة، بس أنهي دولة؟.. الدول اللي على ساحل البحر الأحمر معدودة، ولو رسمت العلم اللي يونس شافه في الجزيرة، الإكليل الذهبي وغصن الزيتون في مثلث أحمر، العلم ده مش غريب عليَّ، أنا بتاع جغرافيا، لو كمِّلنا العلم ده بمثلث من فوق أخضر، وتحت أزرق، هيطلعلنا علم «إرتريا» دي دولة أفريقية، وواحدة من أكبر السواحل على البحر الأحمر، تابع لها أكثر من ٣٥٠ جزيرة، أغلبهم جزر غير مأهولة بالسكان، مش بعيد أبدًا تكون واحدة منهم، هما مش هيغلبوا إنهم يستولوا عليها سواء بالتنسيق مع الحكومة الإرترية أو في السر، وتبقى منطقة محظورة كمان، إسرائيل ليها في جزر إرتريا أكبر قاعدة بحرية خارج حدودها، ويقال إن ليها في جُزر هناك قواعد استخبارات وشبكة اتصالات وأجهزة رادار، ده مكان إستراتيجي لمراقبة السعودية واليمن والسودان ومصر، ومراكز لرصد حركة السفن وناقلات البترول، مش بس إسرائيل، أمريكا وروسيا كان ليهم قواعد هناك في وقت من الأوقات.. أنا متأكد إن الجزيرة دي في إرتريا، بس

السؤال هو أنهي جزيرة فيهم.

- طيب ما تحاول تبحث في خرائط جوجل.

- مش هتبان أكيد، لازم أروح بنفسي.

- بنفسك.. ده إمتى!! محدش هيسيبك تسافر، وبعدين هتروح ليه أصلًا، ما تبعد عن الشر وغنيله.

- لو بعدت عن الشر هو مش هيبعد عني يا أدهم، هات سيجارة.

- سيجارة! من إمتى؟!

- مش ليّ، ليونس.

بدا في أفكاره أنه لم يقتنع، وأعطاها لي على مضض، وخرجت أطل براسي من النافذة المفتوحة، أول مرة -كمحمود- أشرب سيجارة ولا أسعل، بخبرة يونس، جعلت أتأمل الطريق من النافذة، ووقف إلى جواري أدهم، ندخن سويًّا، في صمت، أنظر إلى المقهى القريب، وإلى العابرين ذهابًا وإيابًا، أغلبهم من المصيفين، الغردقة لهم مجرد مهرب مؤقت، ولكنها لي بيت وسكن، رائحة المدينة، نسيمها المميز، قمرها المتجلي، وضيوفها الرائقون، جعلت أتأمل هذا لدقائق، حتّى شعرت بحركة غريبة على طرف الطريق، سيارة جاءت مسرعة وتوقفت فجأة بطريقة مريبة، ولم أتبيَّن من بداخلها، ولكني

توقعت، فدخلت مسرعًا، وقلت لأدهم:

- انزل من هنا بسرعة، اختفى من المكان.

- في إيه يا محمود، أنا مينفعش أسيبك وإنت في الحالة دي!

- مفيش وقت يا أدهم انزل حالًا..

وضرب أوركا الباب بقدمه بغتة فانفتح، ودخل إلى بيت محمود وصوَّب مسدسه، كانت الغرفة مظلمة تمامًا، وجعل يبحث عنه في كل مكان بالبيت فلم يجده، كأنه اختفى بلا أثر، وضع كفه ذا الأصابع الثلاث على مفتاح النور، فتفرقت أشعة الضوء، وتفشي بوضوح كل ما بالغرفة، وإذا بعصا البيسبول تباغته وتسقط على وجهه مرتين بعزم ما أوتي محمود من قوة، وثالثة تطيح بالسلاح من بين كفيه، ورابعة وخامسة على ظهر ركبته حتّى انهار عليها أرضًا، ضبط محمود قبعته السوداء الجديدة التي كان يرتديها، ثم تمهل يستجمع قواه قبل أن يصوب ضربته الناهية الأخيرة على ظهره، فانقلب أوركا على وجهه وبركة الدماء المنصبة من أنفه تتسع تدريجيًّا، قبض محمود على السلاح وفوهته نحو رأس أوركا من المسافة صفر، ليس عليه سوى أن يضغط الزناد فتتفجر رأسه أشلاء في أرجاء الغرفة، وراح يقبض على السلاح بأعصاب

Screenshot saved

تكاد تتفجر من شدة الغيظ، تتشنج عضلات وجهه، وتكز أسنانه، ثم صرخ صرخة مدوية، وألقى السلاح بعزمه بعيدًا حتّى سقط له طلاء الجدار، وهوى على مقعد قريب، وجهه منكس، كفاه على جبهته، وراح يتناول أنفاسه مثل عداء منهك، في جيب أوركا كان مسدس آخر، جعلت تمتد إليه أصابعه الدامية المرتعدة مثل ثعبان هزيل، في هدوء وخبث شديدين رفع سلاحه بما ملك من أنفاس منهكة، وكان محمود قد لاحظ ذلك فقام يباغته بضربات عشوائية متتالية على ظهره وأطرافه، وجعل يصرخ فيه:

- يا أخي مش عايز أموِّتك.

تناول أنفاسه، ثم قبض عليه من رأسه فرفعها، وراح يحدثه في أذنه:

- بس عارف.. أنا هخليهم يموتوك بإيديهم، مفيش حاجه اسمها شيفرة الدولفين، كل الحكاية أنّك مجرد أفكار مزروعة في جسم واحد غيرك، غاسلين دماغك علشان يستغلوك، وأول ما تدوَّر على نفسك هيقتلوك.. أنا سبتلك فرصة المرة دي، بس لو شفتك تاني هموتك.

ألقى برأسه، ثم فتَّش جيوبه، وأخذ الأسلحة من المكان، دخل غرفته يرتدي ملابسه، ملأ حقيبة ظهر، وتناول عصا البيسبول، ولمَّا خرج كان أوركا

راقدًا مكانه لم يتحرك إلا من أنفاسه المتلاحقة، رمقه بضيق، ثم عبر من فوقه وأوصد الباب.

***

مطار القاهرة الدولي

تلك الساحة الواسعة، الذاهبون والحاضرون، وجوه من مختلف الجنسيات، وحقائب محمَّلة على ناقلات، أرجل مسرعة، وصخب وأصوات متداخلة، وكنت أنا أجلس مسترخيًا على أحد مقاعد الانتظار، ساعتان على موعد الإقلاع، فتحت هاتفي، وكانت عدة رسائل تخبرني بعشرات المكالمات الفائتة، اتصلت بأدهم:

- إنت فين يا محمود، أنا في البيت عندك، الباب كان مفتوح وفي دم على الأرض، إيه اللي حصل، إنت كويس؟!

- أنا كويس يا أدهم، أنا في مطار القاهرة، عندي رحلة كمان ساعتين.

- إنت هتسافر!! إنت مجنون يا محمود.

تنهدت، وأجبته بحزن شديد وأنا أعرف أن ربما لن أراه مرة أخرى:

- سامحني يا أدهم، لو فضلت معاكم هعرضكم للخطر، ومش عايز أفضل عايش مطارَد، متقلقش،

يومين بالكتير وهكون في ساحل مدينة بعيدة في أمان، هتصل بيكم من هناك وأطمنكم عليَّا، ولي لي.. أول ما تقوم بالسلامة لازم تخليها تكلمني.

- فهِّمني طيب إنت ناوي تعمل إيه.

- أنا لازم أقفل يا صاحبي، لو مت انشر قصتي يا أدهم، وخلي بالك من لي لي.

***

الحدود الجوية لدولة إرتريا

ساعات في الطائرة، مضيت أراقب العالم من الأعلى، من بين السُّحب يبدو كل شيء صغير جدًّا، وجعلت أفكر في الأشياء، لعلَّني اليوم أدركها بمفهوم مختلف، جعلت أفكر مَن أنا.. مَن أصبحت الآن؟! محمود يحب ذلك النوع الصاخب من الأغاني الميتال، يونس لا يطيقها، فما لي الآن أشعر برغبة في سماعها، أذلك يعني أنني محمود؟ الذي يكره رياضة البيسبول! فما لي اليوم لا أشعر مكتملًا إلا والمضرب في قبضتي، أكره لي لي، لأنها تشبه كثيرًا زميلة متعجرفة عرفتها أيام الجامعة، كانت تشعرني بالتقزز هي وحبيبها الأبله الذي يذكرني بأوركا في حماقته، كما أنني أكره ذلك النوع من النساء المقدِمات المغامرات ذَوات النظرات الجريئة، كنت أحبها رقيقة خاضعة، فما

لي اليوم تنعكس وجهة نظري، وأعشقها، أعشقها أكثر من يونس، بقلب محمود!

أرهق كبار الفلاسفة هذا السؤال على مدار عقودٍ.. ما هو جوهر الإنسان؟ الشيء الذي يميز شخصًا عن آخر.. هل هو قلبه؟ هيئته؟ ذاكرته؟ عقله؟ أم هي بيئته ومرافقوه؟ ولكن الحقيقة أن كل تجربة تمر بالإنسان تبدِّله، وكل شيء فيه يميزه، وأننا اليوم غير أنفسنا بالأمس، فتعلمت أن لا أقيد رغباتي بحكم أنني أعرف نفسي، لأن في الحقيقة لا أحد يعرف نفسه كامل المعرفة، ذلك لأننا في تغيُّر مستمرٍّ، يتبدَّل وعينا كلَّ يومٍ، ومع كل تجربة، كنت أرى الأشياء من منظورها الضيق، والآن أصبحت كأنما أراقب كل شيء من نافذة الطائرة، قطعت حيرتي رسالة من الطاقم تنبئ بأننا على وشك الهبوط، فوضعت السمَّاعات في أذني لتخفف ضغط الهواء، وجعلت أنصت إلى مزيج من الألحان الكلاسيكية، وموسيقى الميتال الصاخبة، حتَّى نزلتُ إلى المطار، وخرجت إلى مواصلات مدينة أسمرة.

يطلقون عليها روما أفريقيا، أو روما الصغيرة، جميلة على غير المتوقع، بنايات على الطراز الإيطالي الكلاسيكي القديم، جوامع وكنائس، وجميلات سمراوات بابتسامة تجذل الروح، أعين

كحيلة، وشعر مموج، وقوام أسمر ثائر، النسيم يشوبه الصهد قليلًا، ويراقص أشجار النخيل والدوم على طول الطريق، بيوت قصيرة بأسطح مائلة تحسبًا للغيث المتكرر، وتمثال نحاسي في الميدان الواسع لبوشكين، الشاعر الروسي الشهير ذو الجذور الإرترية، قضيت ليلتي في أحد الفنادق الفاخرة بأسمرة، ومع الشمس تناولت فطوري وشربت قهوتي، مارست بعض التمرينات الرياضية، وجعلت أسبح وأغطس قليلًا في حمام السباحة بالفندق، ثم جمعت أغراضي، عصا البيسبول، وسماعة أذن لا سلكية مقاومة للماء، ومنظار مكبر، وأخذت سيارة تقلني إلى خارج العاصمة، ساعتان باتجاه الساحل، وعلى متن قارب بمحرك صغير توجهت نحو فندق سياحي عالي الطراز بجزيرة من جُزر دهلك، كان الفندق شحيح النزلاء كعادته، ولكن جميعهم من هؤلاء الأثرياء الأقلاء بالبلدة، وبالفندق مهبط طائرات صغير، تسللتُ إليه، وعثرت هناك على ما كنت أقصده وأتمناه، طائرة مروحية خاصة، وكان حارثها قريبًا، بسهولة استطعت أن أكتم أنفاسه حتَّى أُفقِدَه وعيه، وقفزت إلى الطائرة مسرعًا.

ضجيج المحرِّك متصاعد مثل طبول الحرب، دقائق وبدأ الهواء يحملني، فتتسع المسافة بيني وبين الأرض، وتتقلص المسافة بيني وبين السماء،

واتخذت طريقي سريعًا قُرب السحب بحثًا عن المجهول، تميل الطائرة حسبما أوجهها، بين ساحل إرتريا وقُرب منتصف البحر الأحمر، من الجنوب وإلى الشمال، وبالسرعة الفائقة، أبحث بالمنظار، بين الجزر متباينة الأحجام، وسفن البضائع التي تشق البحر كالأعلام، لكنَّها من هنا تبدو صغيرة مثل أنملة، وجعلت أبحث لساعاتٍ، كأنما أبحث عن سمكة في قلب المحيط، نزلَتْ الشمس، وبدأ الشفق الأحمر يثوي في الأفق البعيد، والظلام من خلفي يتمدد في السماء كالسرطان، يطاردني مثل شبح أسود، لو حلَّ الظلام لن أبصر الجزيرة أبدًا، ولن تتسنى لي فرصة الطائرة مرة أخرى، أوشك الوقود على النفاد، واقتربتُ من حدود السودان، فجعلت أميل بالطائرة عائدًا مرة أخرى، متوجهًا صوب الظلام المتفشي، يائس بَعدَ أملٍ، أفكر فيما يجب أن أفعله غدًا، هل أبحث في نفس المنطقة، أم إنني أخطأت التخمين، وجعل البحر يفقد لونه الأزرق نحو ظُلمة رمادية ثقيلة، وبدأت أعين النجوم تتفتح في قلب السماء، ثم لمحت في البحر اضطراب غير مألوف، شيء واسع الأفق يتحرك مثل كائن بحري أسطوري، فوضعت النظارة وجعلت أحدِّق في هذا الشيء، وإذا بأسرابٍ كثيفة من الدولفين تداعب الموج وكأنهم في سباق للمسافات الطويلة، تذكرت

لمّا رأيتهم ذاتَ يومٍ على متن الجزيرة، وجعلت أتبعهم متشبثًا بذلك الخيط الرفيع من الأمل، قللت الارتفاع متدنيًا قُربَ سطح البحر، وكانت الطائرة تنذر صفيرًا مزعجًا ينبئ بأن الوقود على وشك النفاد، وبعد أكثر من نصف ساعة لمحتها تلوح في الأفق البعيد، جزيرة الدولفين تهللت أساريري، ولم أستطع كتم ضحكة الانتصار، ولّيت وجه الطائرة صوب الجزيرة، ثم جعلتها ترتفع قليلًا إلى الأعلى.

***

جزيرة الدولفين

خرج المتدربون من سكنهم إلى ساحة الجزيرة الواسعة، يتفقدون ذلك الصخب القادم من السماء، عشرات المتدربين بمختلف أعمارهم، ينظرون للأعلى كأنما يشاهدون خسوف للشمس، ويتزايدون واحدًا تلو الآخر، والطائرة المروحية تقترب عليهم كأن نيزكًا يهوي من السماء، وفجأة تتسع أعين المراقبين فزعًا من بين فتحات أقنعتهم البيضاء. وبعد أن كانوا يقتربون رويدًا من مصدر الصوت، أدبروا يهرولون، يتعرقلون ويتدافعون فيما بينهم فرارًا، لمّا أيقنوا أن الطائرة لا تهبط عليهم، بل تسقط.

ارتطمت الطائرة بالمبنى الكبير، فانفجرت

انفجارًا مدويًا، وطالت النيران المباني والعشب والنخيل، وساعد على ذلك كثرة القش والخوص على أسطح المباني، فأضحت الجزيرة مثل جحيم متوهج، وخرجتُ أنا من الماء خلف كل هذا، وعصا البيسبول متدلية من يميني، أحيانًا لا بأسَ من أن نخرج الوحش الكامن بداخلنا، فوضعت السمَّاعات بأذني وثبتها بإحكامٍ، لقد حان موعد العرض الأخير، ضغطت على السمَّاعة فكانت أغنية SKILLET MONSTER - ميتال بالطبع، يتدفق لحن الأغنية في الثواني الأولى من سمَّاعة واحدة، ذلك الجيتار الكهربي المتقطع، وكأنه شرر أوقد فتيل الأدرينالين في دمي، وأمدَّني بطاقةٍ لا نهائية، وجعلت أتقدَّم نحوهم بخطى متسارعة، ولما تفجر اللحن من السماعة الثانية، بدأت عدوًا.

لاحظني المتدربون والحراس فهجموا مثل ساحة حرب، وهجمت بغضبٍ مثل وحش كاسر، هم بعددهم، وأنا بالعصا، أتنبأ بحركاتهم فأتجنبها، وأتجاوزهم مثل لعبة قتالٍ، أسجِّل إصابة تلو الأخرى، صور متقطعة تتجلى في رأسي وأنا أصوِّب بالعصا، مثل بطل خارق في قصص مصورة، أجساد تتطاير، ووجوه دامية تتألم، والنار من خلفي تتراقص مع الريح السريع، كأنما تتراقص على اللحن، الأعشاب الجافة تحترق، فتنقل النار بين الأبنية

مثل وباء، أدور حول نفسي وأتحرك مثل راقص يذوب جسده في اللحن، فيتجلى الأداء، دقات الطبول الصاخبة تملأ أذني، وتتوالى الضربات، أختفي في الظلام، وأظهر مثل ظِلٍّ أسود، مثل كابوس لا مفر منه، يثملني ذلك الغضب، وأنتشي مع كل ركلة، حتى انتهت الأغنية، والأبدان من خلفي مترامية ساكنة أو تتألم، وعلى بُعد أكثر من مئة متر رأيت الجنرال.

كان في غرفة مغلقة خلف زجاج شفاف، يعمِّر بندقيتَه ويصوِّب، بأعين حادة غاضبة، مثل الذي يصوب على ذئب أكل غنمه، واقتربتُ بخطى ثابتة وأنا ألتقط من بين الرمال صخرة ملساء، ألقيتُها نحو السماء، وجعلت أسرع من خطاي، ينتظرني الجنرال حتَّى أقترب فيضمن هدفه، لمحت الصخرة وهي تسقط، استدرت حول نفسي وضربتها بعزم قوتي، أصابت الزجاج فتحطم على الفور، وبدأ الجنرال يضرب طلقات متتالية، ولكن يهدأ الزجاج، ويبصر الجنرال، فلم أكن خلف الزجاج، وتخيلت ملامحه المشدوهة، وهو يدرك أنني الآن أقف خلفه تمامًا، وقد دخلت من نافذة أخرى.

لم يكد يستدير حتَّى أطحت بالبندقية من بين كفيه، وجعل يتوسل، تارةً باسم يونس، وتارةً باسم

محمود، ولم يذعن له أيٌّ منهما، ثم جعل يهددني، ثم حاول أن يحاورني، أن يمنطِقَ الأحداث ويقدِّم المبررات، ولكنِّي لا أحب الحوار الذي يدور بين البطل وعدوِّه دائمًا في نهايات الأفلام، رفع ذراعه فطويتها، ووقفت خلفه وكتمت أنفاسه بكل ما أوتيت من قوة، تورمت عروقه، وجعلَت أطرافه ترتعد، وشعرت بأعصابي ترتعش من شدة قبضتي عليه، حتَّى كاد الدم يتفجر من عروقي، وراح ينتفض ويختلج مثل غارق يصارع من أجل الحياة، يحاول أن يصرخ فيخرج صوت أنين مكتوم، يمسك ذراعي بكفيه محاولًا أن يرفعها، حتى احمرَّ وجهه، واغرورقَتْ عيناه، وجعل يدفع الأرض بقدميه كمصاب بالصرع، ثم بدأت أعصابه ترتخي رويدًا، ويفقد قوَّتَه، ورفعت كفي الأخرى على رأسه، وجعلت أمسح عليها، كأنه طفلٌ سيخلد إلى النوم، وراح يهدئ بنيانه شيئًا فشيئًا، حتَّى سكن تمامًا، ولكن لم أتركه، مضيت أكتم أنفاسه وأمسح على رأسه، «ششش» أقول له وأكرر، مغمضًا عيني، ورأسي لأعلى، ثم انتفض جسده مرة أخرى، كأنما عاد إلى الحياة، أو كأنَّه تصنَّع الموت يحاول أن يخدعني كي أتركه، ولم أتركه، انتفض بكل ما أوتي من قوة، وأحرقت رئتيه كل ذَرَّة تنفسها، ازرقت بشرته، وجحظت عيناه، وسقطت أذرعه، وهدأ

مرة أخرى، وكانت المرة الأخيرة، انتظرت قليلًا ثم تركته، فسقط على الأرض متراخيًا.

شعرت بهدوء أخيرًا، تناولت أنفاسي، والتقطت عصا البيسبول، ومضيت غاربًا، متوجهًا نحو أحد القوارب، وجعلت أشق البحر عائدًا نحو الشاطئ، ارتخيت مثلما لم أرتخِ من قبل، عضلاتي كلها تؤلمني، أطرافي ثقيلة، وعيني واهنة، تركت القارب يتمايل بين الأمواج قليلًا، محاولًا أن آخذ قدرًا من الهدوء، وفجأة سمعت طلقة مدوية، وشعرت بدفءٍ وألمٍ رهيبٍ في منتصف ظهري، ونظرت خلفي فكان أوركا على قارب آخر مصوبًا مسدسه، لقد قتلني ذلك اللعين.

غضبت مثل شيطان، وألقيت عليه العصا بعزم قوتي، فاخترقت الهواء مثل طلقةٍ وارتطمت بوجهه، أفقدته توازنه وكاد يسقط على ظهره على متن القارب، ونظر مرَّة أخرى فلم يجدني، راح يدور حول نفسه ويبحث في كل مكان بالبحر، وكانت من حوله المياه هادئة مستقرة، ضرب ثلاث طلقات عشوائية نحو البحر، ولكن ذلك لم يغير من استقراره شيئًا، ملأ الرعب وجهه، وازداد فزعًا لما خرجت له بغتة، لم يكد يستدير حتَّى تمكنت منه، وانتشلت المسدس بسهولة من كفه ذات الأصابع الثلاث، ألصقته

في معدته، وأفرغت أمعاء المسدس في أمعائه، إحدى عشر طلقة متتالية أحررها فيه بغضبٍ محتد، وجعلت أحصي العدد مع كل طلقة، ثم أردفت:

- قُلتلك لو شفتك تاني هموتك.

سقط على ظهر القارب، ساكنًا تمامًا، تتدفق الدماء من فمه وبطنه في تزايد بطيء، ثم شعرتُ بدوَّارٍ شديدٍ، عظام ظهري تؤلمني كأنما سيخ يخترقها ويدور فيها، وراحت الرؤية تختل وتهتز من حولي، سقط المسدس من كفي فغرق بهدوء في ماء البحر، لا أعرف إن كان ذلك التمايل من القارب أم إنني بدأت أفقد توازني، وشعرت بسخونة سائل يتفشى بتزايد في ظهر القميص، تحسسته بأصابعي فعادت ملطخة بالدماء، وجعلت الدنيا تميل رويدًا، وببطءٍ شديدٍ، عصت أجفاني إرادتي وانغلقت رغم عني، وسقطت في البحر فابتلعني، وجعلت أتدنى مستسلمًا نحو القاع البعيد، مشلولًا غير قادر على تحريك أي طرف، وبعين واهنة لمحت شيئًا يقترب في وسط الظلام، يدنو مسرعًا، ويحرِّك رأسه الكبير صعودًا وهبوطًا، عيناه تلمعان، وفمه مبتسم، كانت سمكة دولفين كبيرة، وشعرت ببشرته الدافئة تلمس جسدي بآخر ما امتلكت من وعيٍ، ثم جعل يدفعني باتجاه الشاطئ.

***

ساحل المحيط الهادئ / بعد فترة

لا أصدق أنني نجوت من كل ذلك، ذكريات متزاحمة في رأسي لقصة أشبه بالخيال، كنت أجلس على أحد الشواطئ التي تطل على المحيط الهادئ، بمدينة نائية في قارة آسيا، بعيدًا عن كل شيء، أخرجت هاتفًا قديمًا، واتصلت بأدهم، لقد اشتقت لصوته كثيرًا:

- إزيك يا أدهم؟

- محمود، إزيك يا محمود، إنت فين، مجتش ليه؟؟

يحدثني بتلهف وقلق شديدين، وأجيبه بحزنٍ وأسفٍ أشد:

- مش هينفع آجي يا أدهم، هما لسه موجودين، وبيدوروا عليا، ولو عرفوا مكاني مش هيسيبوني، بس متقلقش أنا كويس.

- مفيش حد بيدور عليك يا محمود، إحنا كلنا هنا كويسين، تعالى وإحنا هنحميك.

- طمني بس الأول، لي لي عامله إيه؟

ولكنه لم يجِب، ومضت ثوانٍ طويلة على هذا الحال، وردت كل الاحتمالات السيئة على خاطري،

وناديته بقلق شديد:

- أدهم!

- انسى الموضوع ده يا محمود ومتفكرش فيه كتير.

- في إيه يا ادهم!

- إنت فين يا محمود؟!

وأجبته على نفس نبرته:

- ملكش دعوة أنا فين يا أخي، طمني لي لي عاملة إيه يا أدهم.. ألو.. أدهم.. أدهم إنت معايا..

انقطع الاتصال، واتصلت، مرة أخرى فكان مغلقًا، استخرجت رقم بشير على الفور، واتصلت:

- ألو، أيوه يا بشير، معاك محمود، لي لي كويسة؟

وجاء صوته مبشرًا:

- اطمن يا محمود، لي لي فاقت من يومين وكانت كويسة، بس هي فقدت جزء كبير من ذاكرتها، هي دلوقتي مش فاكرة أي حاجة، وحتى مش فاكراك!

- طيب هي فين؟

- محدش يعرف هي فين، مشيت ومحدش يعرف طريقها، إنت اللي فين يا محمود إحنا كلنا قلقانين

عليك؟

لا أعرف لماذا ابتسمتُ مطمئنًا، وقلت له بثقة بالغة:

- لي لي بتحبني يا بشير، حتى لو ناسياني، هي الوحيدة اللي هتعرف توصلي، لأن الأرواح بتتلاقى.

أنهيت المكالمة ثم استرخيت على مقعد البحر متبسمًا، وقد أقنعت نفسي بما اختلقته للتو، متجاهلًا ذلك الخوف العميق بداخلي، أنني لن أراها مرَّة أخرى، حاولت أن افكر فيها، يقولون أنّك إذا فكرت في أحدهم كثيرًا وجدته، ولكن ذلك لم يكن سهلًا، ضجيج الأفكار في رأسي يؤلمني، مرهق أن تحمل ذاكرتين في رأس واحدة، أحيانًا أشعر أن كل ذلك مجرد وهم، ربما في بعض الأوقات تطغى ذاكرة محمود، وتضمر ذاكرة يونس، فأتخيل أن يونس هذا لا وجود له، وأن عقلي كان يرسم سيناريوهات ويعيشها ويصدقها، تدق في أذني كلمات دكتور أدهم، عندما أخبرني يومًا أنني مريضٌ بمتلازمة الفصام، حتَّى أرهقني ذلك في عزلتي، وجعلت أبحث عن أعراض ذلك المرض، ويا ليتني ما فعلت، لم ينقص ذلك من حيرتي، بل أزادها، يقال إن مرضى الفصام لا يستطيعون التفرقة بين الحقيقة والخيال، يصابون بالأوهام والهلاوس،

فيتخيلون أشياء، ويسمعون أصواتًا غير حقيقية، يتخيلون دائمًا أنهم مطاردون ومراقبون، وأن هناك من يتآمر عليهم ويريد أن يستغلهم، وجعلت تمضي الأسئلة في رأسي مثل مجنون، هل توهمت قراءة الأفكار؟ هل أنا الآن في هذه البلدة البعيدة هارب من مجرد وهم؟ وأنني لست مطاردًا ممن بقوا من جماعة الدولفين أو أي شيء؟ آخر ما أتذكره بوضوح هو أنني تم القبض عليَّ بتهمة قتل ريماس. أتساءل هل تمّت محاكمتي!! وإعفائي من العقوبة مثلًا بحكم أنني مريض نفسي، وقصة يونس هذه اختلقها عقلي وعاشها وطوَّرها خلال ثلاث سنوات من التأهيل النفسي الذي تم الحكم عليَّ به، ولكن هل من الممكن أن أختلق قصةً بهذه الدقة والتعقيد؟! لمَ لا! ألست متخصصًا في الجغرافيا والتاريخ، هل ذلك يفسر قصة الساموراي وجنكيز خان!! ربما كل ما جاءني من تفاصيل عن جزيرة الدولفين كانت بسبب ما قالته سارة ذات يومٍ عن هذه الأشياء، لماذا تشبه لي لي زميلتي المتعجرفة التي لم أُحبها من الجامعة؟ رغم أن عيني كانت تحب أن تلمحها في كل فرصة تسمح، والحق أنني كثيرا ما اشتهيتها في ذهني، لكنها لم تحب إلا ذلك الأحمق شبيه أوركا الذي افترسها مني، ورقم الوشم ١٠٩.. أليس هو رقم عنوان العمارة التي أقطن فيها، هل

هذه مصادفة! الآن أتذكر أنني ذات يومٍ قرأت في إحدى الجرائد عن تلك الحادثة التي شغلت عقلي كثيرًا، «طفل يقتل والده بست طعنات دفاعًا عن أمه» هل كان ذلك الخبر يخص يونس حقًّا، أم منه استوحيت القصة وعشتها بسبب كرهي لوالدي، وراح عقلي يستجمع عناصره في اللا وعي، ويخلق قصته ويعيشها.. هل يشبه الجنرال والدي؟ لماذا يشبه الجنرال والدي؟! بدأ قلبي يضطرب من كثرة التفكير في هذا الأمر، أغمضت عيني وجعلت أنشط تركيزي، لأستعيد كل التفاصيل الخاصة بيونس، وأنسى كل ما فكرت فيه، مستحيل أن يكون ذلك وهمًا!! كيف قرأ محمود أفكار الضابط في الكمين، هل كان الكمين وهمًا، مستحيل! إن كان كذلك فكيف تم القبض عليَّ، هل بلَّغ عني عم فتحي مثلًا؟! لا أعرف!! ولكنِّي جعلت أبحث عن الأشياء التي تعزز موقفي وأفكر فيها، لا أحتمل حقيقة أنني أعيش في مجرد وهم، أزاد قلبي من خفقانه، وتسارعت أنفاسي، ثم فتحت عيني أبحث عن الدليل، الوشم الذي كان على ظهر كفي، ولحسن الحظ كان موجودًا، يتجلى في بصري شيئًا فشيئًا ويزداد وضوحًا، واتخذته دليلًا قاطعًا وكافيًا أنني لا أتوهم، قررت أن أغفل عن أي احتمال آخر غير هذا، حتى لا يضطرب عقلي، وأن لا أفكر مرة

أخرى في تلك الأشياء التي قد تصيبني بالجنون والخرف، شيء في قلبي حدَّثَني أن آخذ جولة قصيرة على رمال الشاطئ، ربما نسيمه يسكن ذاكرتي غير المستقرة، وجعلت أرسم آثاري ماضيًا في طريقي، متناسيًا كل شيء، وعلى بُعد أمتار قليلة لمحت ذلك الوجه المألوف، كانت جميلة جدًّا، مثل القمر إذا تجلى، تضع على رأسها قبعةً كبيرةً، ونظارة على وجهها، وتجلس وحيدة على مقعد بعيدٍ، ذهبت إليها مسرعًا، ووقفت أمامها، فخلعَت النظارة، وكانت هي! رمقتني.. وعقدت حاجبيها في تعجُّبٍ واضح، أمالت رأسها قليلًا، وكأنها رأت شيئًا مألوفًا، ثوانٍ طويلة لم يتحدث فيها أيٌّ منا، ثم فجأة اتسعت عيناها ورفعت حاجبيها، كأنها تذكرت شيئًا، وابتسمت.

تمت

للتواصل مع الكاتب:

فيسبوك: fb.com/diaa.eldeen.315

انستجرام: dia2_eldeen

واتس آب: 01226497082